الريـح العقيم

رواية

محمد حمودة زلوم

KINZY PUBLISHING AGENCY

2024

KINZY
PUBLISHING
AGENCY

Kinzypa.com

info@kinzypa.com

201122811065+
201122811064+

الريح العقيم

محمد حمودة زلوم

تصميم الغلاف

محمد حمودة زلوم

كان أبو جابر يجلس وحيداً يفكر بما آل إليه، فقد استبد به مرض عضال، لا يستطيع معه حراكاً، استنفذ المرض دخله الضئيل، وتراكمت عليه الديوان، تنهد تنهيدة خرجت من أعماقه بحرقة وأسى ثم قال يحدث نفسه كالتائه:

أنا أبو جابر، من كان يعيش عيشة رغدة أسير في الدنيا مزهواً كطاووس، جيبي عامرة بالمال، هكذا أصبح لا أمتلك شروى نقير، أعيش على صدقات المحسنين، وفجأة تملكه شعور مرعب فهطلت دموعه واجهش بالبكاء.

سمعت زوجته أم جابر صوت إجهاشه في البكاء فدخلت عليه لترى سر بكائه فقالت بخوف:

-خير يا أبا جابر

لم ينبس ببنت شفة، بل كتم صوت بكائه وهو يهز رأسه بحزن قالت زوجته تطمئنه وقد عرفت سر بكائه وحزنه:

-توكل على الله يا رجل ما بعد الضيق إلا الفرج...

فرد عليها وهو يضرب كفاً بكف:

-أنا أبو جابر، الذي كنت موظفاً رفيعاً، وكان لي جاه وصولجان... وكان ... أصبح هكذا، جثة هامدة بلا حراك.

قالت زوجته وهي تداري دمعه تتأرجح في عينيها:

-صلي على النبي لا يبقى على ما هو إلا هو.

قال وقد راقت نفسه بعض الشيء:

-الحمد لله على كل حال.

انشرحت أسارير وجهها وهي تقول:

-الحمد لله.

ثم استطردت قائلة بلهفة:

- غداً يتخرج ولدنا جابر من الجامعة ويتحمل عنك العبء وترتاح من الدين وهمه.

-الله كريم أسأل الله أن لا يذهب تعبه سداً.

نظرت إليه فوجدته قد أسبل عينيه وراح في نوم عميق ثم ذهبت وأحضرت لحافاً خفيف وألقته عليه.

عاد جابر فرحاً مسروراً، فقد دخل البيت مختالاً يفيض وجهه بالسعادة، رأته أمه فأدركت أن بكرها عاد حاملاً البشرى. فقالت:

-نجحت؟!

فقال وابتسامة عريضة تزهر على فمه، فأشرق وجهه وقال في فرح:

- نعم بتقدير ممتاز

لم تتمالك نفسها من الفرح فضمته إلى صدرها تُقبله، ثم أطلقت زغرودة تفيض فرحاً.
سمع أبو جابر زغاريد زوجته، فقام من فراشه متكئ على عصاه فأقبل وابتسامة تعلو شفتيه وهو يقول:
-الحمد لله... الحمد لله.
أسرع جابر إلى أبيه وقبل يده، فضمه أبوه إلى صدره والدموع تملأ عينيه وهو يقول:
-الحمد لله الذي لم يذهب تعبك سدى.
قال جابر:
-كل ذلك بفضل دعائك ودعاء أمي.
سمع الجيران زغاريد أم جابر، فجاؤوا يستطلعون الخبر، قالت الجارة أم سلطان بفضول:
-خير إن شاء الله
أجابت أم جابر بفخر:
-نجح جابر.
-الف الف مبروك.
ثم أردفت الجارة بفرح وأنا سأوزع الحلوى بهذه المناسبة الجميلة.
****
جابر حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ، وهذه الشهادة تؤهله لكي يكون معلماً في إحدى المدارس الثانوية.
كان ذلك يثير في نفسه الكراهية، هو لا يحب مهنة التعليم، وليس لديه الصبر على مقارعة التلاميذ، وهموم تجهيز الدروس، وتصحيح الأوراق، ومرافقة الطباشير.
كان يود لو كان مهندساً أو طبيباً، لكن معدله في الثانوية لا يؤهله لدراسة الهندسة أو الطب.
ولكن خشي إن قال لأبويه عما يعلج في نفسه يسبب لهما أرقاً وخوفاً.
عندما التم شمل الأسرة في المساء، قال أبو جابر:
-غداً الأستاذ جابر نراه مدرساً كبير في مدرسة الزرقاء الثانوية.
امتعض جابر ولكنه اخفى شعوره وأردف قائلاً:
-إن شاء الله.
قال أبوه:
-أو معلماً في السعودية مثل ابن عمك الأستاذ سعود، فإنه منذ أن سافر إلى السعودية فقد نشل عائلته، بنى أبوه بيتاً فخماً في الزرقاء الجديدة، تزوج، وفي العطلة الصيفية يأتي محملاً بالهدايا والمال الوفير، وعمك أبو مسعود في نعمة وراحة بال.

قال جابر بامتعاض:
-تدريس وغربة!!
قال أبوه:
-نحن بالتفكير والله في التدبير
قالت الأم موافقة:
-الله كريم

****

لم ينم جابر في تلك الليلة، وترك لخياله العنان، أنا بحاجة إلى عمل يعود بالكسب الوفير، وراتب المعلم ضئيل لا يسد رمقاً، فأنا أعرف المعلمين، الذين يعيشون عيشة بسيطة بينما أصحاب الأعمال الحرة في بحبوحة من العيش، يمتلكون العمارات ويركبون السيارات الفارهة.
-يجب عليّ أن أخوض في الأعمال الحرة، ثم يصطدم تفكيره بمعضلة وهي أن الأعمال الحرة تحتاج إلى رأس مال، والمال مفقود، فكيف السبيل؟
هداه تفكيره أن يعمل كمراقب عمال عند أحد المقاولين وعلى كل حال سيكون أوفر حظاً مما يتقاضاه المعلم.

أبو شاكر، سأذهب إلى أبي شاكر وسأطلب من ابنه شاكر صديقي من أيام الدراسة أن يحدث أباه فيوظفني عند أبيه كمراقب عمال.
راقت له الفكرة، فشعر بالاطمئنان ثم استسلم لسلطان النوم في هدأة الليل، حيث الصمت يعانق الوجود.
كان جابر مستيقظاً في سريره، وضوء القمر الخافت يتسلل إلى غرفته سرح في خياله على أجنحة وردية، فتخيل نفسه يعمل مع أبي شاكر، إنها مهمة سهلة، ما عليه إلا أن يراقب العمال، ويراقب عملهم ويحثهم على العمل ويتأكد من سير الأمور، عمل الطوبار، وضع الحديد حسب المواصفات، الباطون....
ثم ما لبث أن تسلل النوم ليغرق في نوم عميق.
في الصباح أفاق على صياح الديكة، وأشعة الشمس تغازل عينيه فنهض بتثاقل لأنه تأخر في النوم، غسل وجهه، ثم سار بخفة إلى غرفة أبيه، كان أبوه يقظاً في فراشه:
-صباح الخير يا أبي.
-صباح الخير.
-كيف الحال؟
-الحمد لله يرضى عليك.
-هل تناولت الدواء؟
-ليس بعد.

توجه جابر نحو خزانة الأدوية، وتناول علبة الدواء ثم صب الماء في كأس كانت موجودة على طاولة قرب سرير أبيه، ناول أباه حبة دواء وضع الأب في فمه ثم تناول كأس الماء فبلع الأب قرص الدواء، واتبعه الشرب من الكأس وهو يقول:

-الله يرضى عليك يا جابر، الله يوفقك ويبعد عنك أولاد الحرام.

-فيه الشفا

في تلك اللحظة دخلت أم جابر وابتسامة تضيء وجهها فقالت:

-صباح الخير

ذهبت نحو خزانة الأدوية فقال أبو جابر:

-جابر الله يرضى عليه أسقاني الدواء.

قالت أم جابر:

-الله يرضى عليه.

قال أبو جابر:

-آمين يا رب العالمين

******

بعد أن تناول جابر فطوره لبس ملابسه، مشط شعره، ومسح حذائه، وودع والديه وهو يقول بسرور:

-دعواتكما

رد الأبوان معاً:

-الله يوفقك

عندما خرج جابر من البيت، كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، كان الشارع يضج بالحركة، أصوات بائعي العربات تملأ المكان.

كان جابر يسير وفي رأسه تدور أمور شتى، أسئلة تنشأ ثم تذوب، وكان يحاول أن يقنع نفسه انه سيعود بالوظيفة ولكن إذا لم يتحقق حلمه، ينتفض ويحاول طرد الفكرة من رأسه.

وصل بيت أبي شاكر وفجأة تفجرت الأسئلة في نفسه، فأحس بالحرج حتى فكر بالعودة، وبينما هو في قمة الحيرة، إذا بشاكر ينزل من على درج البيت فلمح جابر فصاح:

-جابر...معقول

قال جابر:

-صباح الخير

-خير إن شاء الله... إلى أين أنت ذاهب؟

-لقد اتصل بي أبي وطلب مني أن أذهب إليه

-وأين أبوك؟

-تعرف أن أبي مقاول وهو يبني الآن عمارة في الزرقاء الجديدة. ما رأيك أن تذهب معي فالعمارة في منطقة جميلة؟
قال جابر بشوق وقد حدث نفسه إن ذلك يفسح له المجال ليطلب من شاكر ما يريد، فقال:
-على بركة الله.
ركبا السيارة معاً، وما لبثت السيارة تنطلق مسرعة إلى الزرقاء الجديدة، حيث بدأ العمران ينتشر بسرعة عجيبة، حتى تحولت المنطقة الجرداء إلى عمارات جميلة وشوارع وحدائق تعج بالحياة.
قال شاكر وقد أحس بأن جابر يريد أن يقول شيئاً:
-ما رأيك أن تعمل مع أبي كمراقب للعمال.
أخفى جابر شعوره بالفرح فها هي أمنيته تتحقق وأفاق على صوت شاكر يقول:
-قل ما بك؟ العمل مع أبي؟
قال جابر:
-كيف أكون مكانك؟
-الحقيقة أنني أريد أن أتفرغ للدراسة، وتعرف أنني لم أنجح في العام الماضي بسبب انشغالي مع أبي، وصدق أو لا تصدق فقد فاتحت أبي بأمرك فوافق.
الزرقاء الجديدة أثارت إعجاب جابر، عمارات شاهقة جميلة متناثرة، محلات تجارية على جانبي شارع (36) مدارس ومساجد كل ذلك بهر جابر فقل بدهشة في شارع 36؟!
توقفت السيارة أمام عمارة شاهقة مكونة من خمسة طوابق والطابقان والرابع والخامس يجري العمل فيهما، بناؤون يبنون وعمال الطوبار يعملون بهمة وعزم.
في الطابق الأول والثاني عمال الطراشة يدهنون الجدران بينما هم في الطابق الثالث كان عمال القصارة يقصرون الجدران والسقوف، والعمل جار بهمة ونشاط وأبو شاكر يجلس في الظل.
نزلا من السيارة وتوجهها إلى أبي شاكر الذي كان يتناول الشاي، وسحاب دخان ينبعث من فمه تتطاير سحابات الدخان لتذوب.
حينها وصل الاثنان شاكر وجابر:
فقال شاكر:
-السلام عليكم
-وعليكم السلام
سلم جابر على أبي شاكر فرحب به ترحيباً جميلاً ثم التفت أبي شاكر نحو ابنه وقال له:
-أقلت له؟

-نعم يا أبي
-أوافق
فقال شاكر:
-لا أدري
فقال أبو شاكر بهدوء:
-يا بني تعرف أن صاحبك شاكر يريد أن يلتفت إلى دراسته، لقد كان عمله معي هو السبب في عدم توفيقه بالدراسة.
أنا أعرف السبب! إنه أنا
أعذره، وقد أشار عليّ أن تحل مكانه فما رأيك؟
قال جابر بعد فترة صمت، وكأنه في حالة تفكير.
ولكن أبا شاكر قطع عليه حبل تفكيره وقال:
-أركن عليك
قال جابر وهو يداري موجة الفرح التي غمرت قلبه :
-يشرفني أن أخدم العم أبا شاكر.
-إذن على بركة الله
قال جابر بحياء:
-ومتى أباشر العمل؟
قال أبو شاكر وبسمة عريضة ترسم وجهه:
-من الآن إن شئت
قال جابر مستفهماً عن طبيعة عمله، وما عليه من واجبات حتى يكون على بينة ويبيض وجهه مع أبي شاكر فقال:
-عمي ما هو المطلوب مني؟
-المطلوب منك الإشراف على العمل المخططات ستكون معك، وكل ما عليك أن تتأكد أن عمال البناء يسيرون وفق المخططات، والمخططات واضحة، وتتأكد من كميات الاسمنت في الخلاطة والحديد في الأعمدة والسقوف كما لا تنسى حث العمال مداومة العمل ومراقبة نقصان المواد والعمل على توفيرها، ليبقى العمل مستمراً، على كل حال شاكر سيقوم باطلاعك على كل الأمور التي تتعلق بواجبك.
فقال جابر:
-أرجو أن أكون عند حسن ظنك.
أخذ شاكر يشرح كيفية إدارة المشاريع الإنشائية، وجابر يستمع إليه بانتباه وحذر وساعد شاكر على الوقوف على أسرار العملية من خلال عمل والده، والذي كان يعمل في رسم المخططات الإنشائية للمهندسين في مكتبه.
قال شاكر وهو يحدق في عيني جابر:

-أهم شيء في العمل، العمل الصحيح وعدم التراخي والإصرار على أن يكون العمل على أتم وجه حتى تكسب ثقة الناس وكما تعلم أن الصدق في المواعيد والصدق في العمل وعدم التلاعب بالمواد هو سر نجاح والدي.

قال جابر:

-أعرف أن والدك يتمتع بسمعة طيبة في مجال الإنشاءات.

قال شاكر:

-لولا ثقة والدي الكبيرة بك لما اختارك.

فقال جابر:

-توكل على الله

عندما عاد جابر إلى البيت كان يسير بخيلاء، فقد نال ما يتمنى وفتحت له أبواب السعادة والأمل، دخل البيت وكانت أمه أول ما رآها، فقالت متسائلة:

-أين كنت؟ لقد أزعجنا تأخرك.

انحنى على يديها يقبلها وهو يقول:

-دعواتك يا أمي، لقد وجدت وظيفة عند أبي شاكر المقاول الكبير أبو صاحبي شاكر.

ثم أردف:

كيف حال أبي؟!

-إنه بخير.

ثم توجه الاثنان إلى غرفة الأب

كان الأب يستمع إلى الحديث الذي كان يدور بين زوجته وولده، فتهللت أساريره، ولما دخلت الأم وولدها والابتسامات تشرق على وجهيهما أسرع جابر على أبيه يقبل يده:

قال الأب:

-الحمد لله، الله يوفقك يا ولدي

ثم أردف قائلاً:

-إن أبا شاكر رجل نظيف وسمعته في المقاولات طيبة

قبل شروق الشمس كان جابر متجهزاً للذهاب إلى عمله صوب الزرقاء الجديدة، ركب سيارة الأجرة وعندما وصل كان أبو شاكر يباشر العمال، فما أن أقبل جابر حتى بادره بالسلام، ثم أردف موجهاً كلامه إلى العمال والبنائين:

-هذا جابر وهو المشرف الجديد أرجوا أن تتعاونوا معه

قال معلم البناء:

-حياه الله وإن شاء سنكون عند حسن ظنك

ثم التفت أبو شاكر نحو جابر وقال له:

-توكل على الله

ثم أردف بعد برهة وجيزة
-سأغادر الورشة الآن لأن عندي بعض الالتزامات أريد إتمامها.
ثم ودع جابر و العمال قائلاً:
-الله يعطيكم العافية... السلام عليكم
وركب سيارته وانطلق إلى مهمته.
طاف جابر في أنحاء العمارة، يحيي العمال ويراقب عملهم وكان كلما مر بمجموعة يحييهم ويرحبون به.
كان يقف مع معلم البناء، ويستفسر منه عن الحجر وما نوعه وما صفاته ومعلم البناء يجيب على أسئلته بسعة صدر، ثم يقف عند عمال الباطون ويتأكد من الكميات والعمال يعملون بهمة ونشاط سأل عن كميات الحديد الموجودة والاسمنت والرمل، وكان يدون النقص أو الزيادة في المواد.

******

كان جابر فرحاً سعيداً بعمله، أبو شاكر صار يسند إليه الأمور كاملة، شراء المواد، محاسبة (العمال، المهندسين والبنائين) ومع مرور الأيام كانت ثقة أبي شاكر تزداد به.
فكان المتصرف، والآمر الناهي في كل أمور مقاولات أبي شاكر وكان أبو شاكر في كل فترة وفترة يزيد في أجره حتى وصل ما يتقاضاه ثلاثمئة دينار، إضافة إلى المبالغ التي يهديها إليه أبو شاكر عند إنجازه أي عمل.
مضت سنتان وجابر يقوم بدوره على أتم وجه.
أم جابر في غرفتها ساهمة شاردة الذهن تفكر في حال زوجها المضطربة، وحالته من سيء إلى أسوأ، وجابر ابنها البكر جاوز الخامسة والعشرين من عمره، فقد ضحى من أجل والده الشيء الكثير، لماذا لا يتزوج، يجب إنهاء الأمر حتى يفرح به أبوه قبل أن تخطفه يد الموت.
راقت لها الفكرة، ودخلت غرفة جابر الذي كان مشغولاً في عمل كشف الحسابات.
قالت الأم بحنان:
-أراك مشغولاً يا ولدي
قال لها برقة بعد أن نحى الدفاتر جانباً:
-أهلاً بك يسرني الجلوس معك
-الله يرضى عليك يا ولدي
ثم أردفت والبسمة تنير وجهها الذي خددته السنون، والهموم والمرض.
-اسمع يا ولدي لقد كبرت، وإن من هم أصغر منك سناً تزوجوا، وخلفوا الصبيان، ونريد أن نفرح بك قبل موتنا .
قال جابر بسرعة:

-بعد عمر طويل إن شاء الله.
قالت الأم بمرارة:
-والدك في حالة لا تُطمئن، وأنا كذلك مريضة ونريد أن نفرح بك
لم يفكر جابر بمسألة الزواج، وها هي أمه تقنعه في موقف حرج.
ولكن كيف السبيل إلى إرضائها، وأمام إلحاح أمه قال لها:
-لك ما تشائين يا أمي العزيزة.
-حسناً، سأبحث لك عن عروس تليق بك.
خرجت أم جابر فرحة بنجاح ما سعت إليه ثم تركت لخيالها العنان تقلب دفاتر عقلها بحثاً عن عروس جميلة من أصل طيب، أهلها يرفعون الرأس، وخطرت في ذاكرتها فتيات كثيرات تعرفهن، حتى توقفت عند دار أبي أحمد، فأبو أحمد رجل معروف بطيبته وسيرة حميدة بين الناس، إضافة إلى زوجته الطيبة، أما ابنتهم جوهرة فهي جوهرة بحق، جميلة وتقول للقمر انزل لاقعد مكانك، مؤدبة، وخلوقة، ومتعلمة أيضاً، غداً سأذهب إلى بيت أبيها وأفاتح أمها بالأمر وأرجو أن لا تكون مرتبطة، أو أحد تكلم بها راقت لها الفكرة وغمرها الاطمئنان والسعادة.

******

استقبلت أم أحمد أم جابر بترحاب كبير وهي تقول وبسمة تغمر محياها:
-أهلاً وسهلاً بالجيران الطيبين
-أهلاً بك
وتحدثت المرأتان بأمور شتى، وكأن أم أحمد بعقلية المرأة فهمت سر زيارة أم جابر وخصوصاً عندما دار الحديث عن جابر، مما جعلها تدعو ابنتها لتقول لها:
-يا ليلى سلمي على جارتنا أم جابر
أسرعت الأبنة نحو أم جابر وقالت بحياء:
-مساء الخير
-مساء النور... اللهم صل على النبي ما شاء الله
قالت أم أحمد موجهة الحديث إلى ابنتها:
-اغلي لنا فنجان من القهوة
-حاضر
أحست ليلى بطبيعة الأنثى أن أم جابر جاءت لخطبتها. فذهب إلى المرآة ورتبت شعرها ثم حملت صينية القهوة ودخلت فلما أن رأتها أم جابر حتى بادرتها بالحديث:
-ما شاء الله يا ليلى كبرت
قالت الأم:
-ليلى الأولى على طالبات صفها

قالت أم جابر:
ما شاء الله
خرجت ليلى، فقال أم جابر وقد تغيرت لهجتها:
-اسمعي يا ام أحمد يقول المثل دور لبنتك قبل ابنك
قالت أم أحمد مؤكدة:
-صحيح .
وإنا نعرفكم تماماً كما تعرفوننا أيضاً
-وإننا نريد ابنتكم ليلى لولدنا جابر
تلعثمت الأم ثم سرعان ما أردفت قائلة:
-الله يجيب الخير... ولكن أريد أن أشاور أبا أحمد وكذلك البنت
قالت أم جابر:
-طبعاً طبعاً المهم موافقة الأب والأهم من ذلك كله موافقة البنت
شربت أم جابر فنجان القهوة قائلة:
-إن شاء الله نشربها بالأفراح
-آمين يا رب العالمين

******

أخبرت أم جابر ابنها جابر بما حصل معها في بيت أبي أحمد قائلة بفرح شديد:
-الله يجعلها من نصيبك
قال جابر:
-أهي حلوة؟
قالت الأم:
-عندما تراها ستعرف اختبار أمك
-سنرى... إن وافقوا
-سيوافقون وهل سيجدون أحسن منك

******

كان عرس جابر حديث الناس، والتم جابر بعروسه الجميلة في جو شاعت فيه البهجة والسرور.
وكان حبه لزوجته يزيد عمقاً، لما كان يرى منها من الوفاء والحرص على إرضائه، وإرضاء والديه، فكانت تعاملهما بكل طيبة ورفق وحنان ورعايتهما ولا تتذمر من خدمتها، كانت تشعر نحوهم بالشفقة والألم لما هما فيه من معاناة بسبب مرضهما.

******

حملت ليلى كوب الماء لتساعد حماتها في شرب دوائها، ولما دخلت الغرفة أسقط في يدها، وارتجفت وهي نقول:

-عمتي... عمتي
لم تحرك أم جابر ساكنا، فذهبت إلى التلفون لتخبر زوجها أن يحضر بسرعة لأن أمه في غيبوبة.
جاء جابر قلقاً على أمه، نظر إلى أمه، ورش قليلاً من الماء على وجهها فحركت رأسها فقال:
-الحمد لله
ثم حملها إلى السيارة إلى أقرب طبيب.
طمأن الطبيب جابر أن أمه تعرضت إلى ذبحة صدرية، وإنها مع اخذها الدواء ستشفى بإذن الله، عاد جابر بأمه وقد هدأت نفسه، عندما رأى أمه بخير وتتحدث.
شفيت أم جابر من مرضها وهدأت النفوس لذلك.
بعد يومين عادت النوبة إلى أم جابر، وفشل الطبيب والدواء في علاجها، وما لبثت أن فارقت الحياة، فعم البيت الحزن والأسى، وكان أكثر من استبد به الحزن أبو جابر، الذي فقد رفيقة العمر والقلب الرحيم، فعاش كئيبا حزيناً.
******
وأخيراً نجح شاكر ونال الشهادة الجامعية، فأقيمت الأفراح وكان أول المهنئين جابر وزوجته وقدما هدية تليق بشاكر.
قال أبو شاكر وقد أشرقت على وجهه ابتسامة عريضة:
-الآن تحقق أملي بنجاح شاكر
قال جابر بفرح:
-الحمد لله
تابع أبو شاكر الحديث:
-سيكون شاكر معك في العمل
ثم صمت فترة وجيزة وتابع القول:
-لكن الأمور تبقى بيدك
لم يجب جابر ببنت شفة بل هز رأسه موافقاً
قال أبو شاكر مستفسراً عن مجريات العمل:
-وكيف الأمور تسير في العمل
-كل شيء كما تريد، أنا تربية ذراعك يا عم
******
في اليوم التالي، وبعد الظهر وصل شاكر إلى الورشة، كان أنيقاً يلبس بدلة وربطة عنق، سأل أحد العمال عن جابر فأخبره أنه في الطابق الثالث عند عمال القصارة.
فطلب من العامل أن يذهب إلى جابر ويطلب منه أن يأتي إليه.

فذهب العامل بسرعة نحو الطابق الثالث، وما هي دقائق حتى عاد العامل لاهثاً وهو يقول:

-إنه قادم

ما أن رأى جابر شاكر حتى قال بفرح:

-أهلاً... أهلاً.. يا أستاذ جابر

لماذا لابس كل الذي على الحبل؟

ضحك شاكر وقال:

-الله يعطيك العافية

فأخذ الاثنان يتحادثان أحاديث شتى عن الدراسة وعن العمل وعن دفاتر الذكريات القديمة.

قال شاكر:

-أريد منك مائة دينار لأرافق سمير أبي حميدان على قضاء ليلة في منتزه عمان الكبير.

قال جابر:

-أنا لا أنصحك بالذهاب لتلك الأماكن

قال شاكر:

-يا رجل إنها ليلة في العمر

قال جابر:

-أخشى أن تكون البداية المؤلمة

ضحك شاكر وهو يقول:

-صدقني إن تلك الليالي من أجمل الليالي

غناء ورقص وجميلات

ثم أكمل جابر:

-خمر ونساء وسهر حتى الفجر

قال شاكر:

-لو تحضر حلفة، أنا متأكد أنك ستظل باشتياق لتكرارها

قال جابر وهو يشيح بوجهه:

-أعوذ بالله ... الله يبعدنا

ناول جابر شاكر مائة دينار فأخذها وهو يقول:

-وداعاً يا صديقي

******

شاكر شاب ترك لنفسه العنان يجري لاهثاً وراء الملذات وقضاء الليالي الحمراء، رغم توسلات أبيه حتى يعود إلى رشده، ولكن هيهات، فإن النفوس الإنسانية إذا تعودت على شيء هان عليها الاستمرار فيه.
فرمى توسلات أبيه عرض الحائط ومضى في الطريق الوعر الشائك حتى أورث أباه مرض السكري والضغط.
حتى إنه ذات يوم شكى لجابر ما يقوم به ولده بمرارة وأسى.
قال جابر مهدئاً من روعه:
-توكل على الله، سأقوم بالحديث معه
قال أبو شاكر بتوسل:
-أرجوك، فإنك تخدمني خدمة لن أنساها لك
قال جابر مطمئناً الرجل المريض:
-توكل على الله، سأعمل إلى رده إلى الرشد
عندما التقى جابر مع شاكر في العمل:
قال جابر برفق:
-اسمع يا أخي أنت تعرف مقدار حبي لك وتعرف أنني لا أبغى لك إلا الخير
قال شاكر مستعجلاً:
-الخلاصة ادخل في الموضوع "ماذا تريد مني"؟
قال جابر برفق:
-أرجو أن تسمعني حتى أكمل حديثي
-أنا أعرف ما ترمي إليه
قال جابر:
-إن أباك مريض وقد هده المرض وأنهكه وأخشى عليه من الموت وإذا أنت بقيت على ما أنت عليه... ستفقده، فكيف ستكون حالتك..؟ لماذا لا تلتفت إلى مستقبلك؟ الحياة بحر ومن لا يتحرك بنشاط وهمة يغرق.
أجهش شاكر بالبكاء كطفل صغير وقال بصوت متهدج:
-والله إنك صديق حق، بل أخ كريم مخلص.
قال جابر بابتسامة لطيفة:
-إذن اتفقنا، وتعانقا
قال شاكر وهو يحدق في عيني جابر:
-إن كلماتك الصادقة غسلتني من خطاياي، لقد كانت بلسماً شفت جروحي وألبستني ثوب الندم، يا إلهي ما أروعك.
أنت أنت لم تتغير
قال شاكر بحميمة وصدق:

-الحمد لله
في المساء كان شاكر وجابر في طريقهما إلى بيت أبي شاكر الاثنان كانا فخورين بما حققاه.
فما أن رأى شاكر أباه حتى أقبل عليه يُقبل يديه ورأسه وهو يقول بصوت متهدج وقد أغرورقت عيناه بالدموع:
-سامحني يا أبي، لقد أخطأت بحقك كثير
أبو شاكر لم يحتمل الموقف فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول بصوت أجش:
-الحمد لله الحمد لله الشكر لك يا رب

******

كانت من عادة جابر قراءة الصحف وكانت صفحة الإعلانات في جريدة الرأي هي التي تهمه وتشده، فلفت انتباهه إعلاناً صادر عن وزارة التربية والتعليم في عطاء لبناء عشر مدارس في الزرقاء.
وقد وضعت الوزارة المواصفات بالتفصيل فقام بقطع الصفحة ودسها في جيبه.
في المساء وبعد انتهاء العمل ركب سيارته وتوجه إلى بيت أبي شاكر ليعرض عليه الأمر.
رحب أبو شاكر بجابر وصاح بأهل البيت إحضار القهوة.
قال جابر وهو يخرج من جيبه منشور وزارة التربية فقال أبو شاكر مستفهما:
-ما الأمر؟
قال جابر وهو يقرأ عطاء وزارة التربية والتعليم بعد أن انتهى من القراءة، ناول الإعلان لأبي شاكر قائلاً:
-ما رأيك؟.
-ما رأيك انت!
قال جابر:
-أرى أن نقدم مناقصة لأربع مدارس فقط حتى نستطيع الإيفاء بما نقوم به، فعشر مدارس تحتاج إلى مبالغ ضخمة، إضافة إلى أن الوقت لا يساعدنا فالأمر يخرج عن سيطرتنا ومالنا والمجازفة
قال أبو شاكر بحزم:
-أنا أقول العشر خير من أربع وأنا كفيل بذلك بهمتك وهمة شاكر
قال جابر:
-أنا أعرف أننا نستطيع ذلك، ولكن هذا يحتاج إلى مال كثير وعمال ومهندسين وحتى نكون في السليم، بعيداً عن المزالق أن نكتفي بأربع مدارس في الزرقاء
قال أبو شاكر:
-عشر مدارس أنا أقول وربك بيسرها إن شاء الله

قال جابر:
-لكن؟!
وقبل أن يكمل جابر حديثه قال أبو جابر بإصرار:
-تقدم بالعشر، فهذه فرصة العمر
أذعن جابر للأمر، وهو موقن أن ذلك مخاطرة جسيمة، لأن التكاليف تزيد عن العشرة ملايين دينار.
لم ينم جابر تلك الليلة، وهو يدرس المناقصة بجد واهتمام ثم كتب على مضض الموافقة.

******

بعد شهر من تقديم مظروف العرض، جاءت موافقة الوزارة تخبرهم أن المناقصة رست على شركة أبي شاكر للمقاولات.
شعور مشوب بالقلق غمر جابر، ولما أخبر أبا شاكر طار فرحاً وهو يقول:
-الحمد لله، هذه ضربة العمر... الآن نريد همتك انت وشاكر يا بطل.

******

ذهب أبو شاكر ويرافقه جابر إلى وزارة التربية والتعليم لمقابلة المسؤولين في قسم الأبنية، فاستقبلهما المهندس وأطلعهم على المخططات، والمواصفات، وأطلعهم على العقد.
حيث أخذ جابر يقرؤه وأبو شاكر يستمع. ثم قام أبو شاكر بالتوقيع، ووقع على شيكات كضمان حسب متطلبات العقد بقيمة عشرين ألف دينار.
وبينما هما يودعان المهندس المسؤول قال لهما:
-المهم إتمام المشروعات خلال عامين
قال أبو شاكر:
-إن شاء الله ستسلم المشاريع في فترة أقل ما هو بالعقد
قال المهندس:
-إن شاء الله
وتابع المهندس :
-إن شاء الله بعد غد الساعة التاسعة نلتقي لأريكم أراضي المشاريع على الواقع والتلفون بيننا
قال أبو شاكر:
-وأين نلتقي؟
-عند أول طلوع طريق ياجوز قرب كراجات تصليح السيارات
-حسنا
-السلام عليكم

في الساعة التاسعة والنصف كان أبو شاكر وجابر في المكان الموعود ينتظران مجيء مهندس الوزارة وما هي إلا برهة وجيزة حتى وصل المهندس الذي بادرهما بالسلام:
-السلام عليكم
-عليكم السلام
-هيا بنا
كان يسير بسيارته أمامهما، وهما يتبعانه على مهل حتى عرج المهندس بسيارته إلى قطعة على شمال الطريق، وفي أرض واسعة نزلوا.
قال المهندس:
-هنا ستقام مدرستان
ثم ذهب معهما إلى الأماكن التي ستقام عليها المدارس في أنحاء متفرقة بالزرقاء وكان جابر يدون الأماكن وعناوينها
قال جابر لمهندس الوزارة:
-نحن الآن نعمل في تشطيب مشروع معنا وخلال أسبوع بإذن الله نسلمه وبعدها نبدأ في العمل بمشاريع الوزارة
-حسناً... وسنكون على اتصال دائم
بدأ العمل في مشاريع الوزارة، التخطيط، وضع الأساسات، مواد البناء من اسمنت ورمل، حصمة وحجارة، الجرافات الكمبروصات تعمل بجد ونشاط والمهندسون ومعهم المخططات يطلعون العمال على كيفية العمل، وشاكر يراقب ويوجه ويرشد بهمة ونشاط وهو يقول:
-نريد همة حتى يتم العمل في الوقت المحدد
كان العمال ينفذون عملهم وفق المخططات بكل دقة وحسب المواصفات المتفق عليها.
معلمو الطوبار لا يدخرون جهداً في إقامة جسور الخشب وبأقل من أسبوع كانت الأساسات للمدرستين قد أقيمت، سيارات الحصمة والرمل والحجارة والحديد وصهاريج الماء تقوم بمهامها، تلال من أكياس الاسمنت جاثمة على مقربة من الخلاطة الضخمة.
كان العمل يسير وفق ما خُطط له، وقد ارتأى جابر أن يستمر العمل بعد حلول الظلام، فكانت الأمور تسير بسرعة مع مراعاة المواصفات والجودة وخلال شهرين كانت المدرستان وقد تم بناؤهما.
وقد رأى جابر الاستعانة بالباطون الجاهز يمد المشروع بالسرعة والإنجاز. كانت الحركة مستمرة والعمل يسير وفق المدة المحددة.

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد كان عام 1989 عاماً مرعبا، نزلت قيمة الدينار، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً باهظاً، وأسقط في يد ابي شاكر وفي يد جابر أيضاً، فالتكاليف ارتفعت وبقي ثمانية مدارس.

أبو شاكر عض أصابع الندم وقال:

-ليتني أخذت بمشورة جابر واكتفيت بأربع مدارس فقط

حاول الاتصال بمهندس الوزارة، فلم يجد منه إلا الرفض عندما طلب منه أبو شاكر التعويض فقال له:

-افرض لو أن المواد هبطت أكنت توافق على إعطائنا الزيادة؟

لم يتحمل أبو شاكر هذه المصيبة فانتابه هم وغم وساءت حالته وادخل المستشفى في العناية الحثيثة لفترة تزيد على أسبوع.

خرج أبو شاكر من المستشفى وهو كالغائب، فما زالت ظلال المرض تجثم عليه وهو يتمتم الطمع ضر ما نفع.

كان جابر مستمراً في العمل، حتى ينجز المشاريع وعلى الأقل حتى ينفذها في وقت أقل ليوفر ما يستطيع توفيره، لأنه حسب رأيه أن الأيام كلما زادت في العمل فإن ذلك يترتب عليه زيادة في المصاريف.

أبو شاكر جلس كئيباً حزيناً، وقد هده التفكير، ولكن فجأة هب واقفاً وقال:

-أنا أبو شاكر شيخ المقاولين، والحياة ربح وخسارة

فنادى زوجته وقال لها في حزن:

-يا أم شاكر نحن مثل فأرة الحقل، التي كانت ضعيفة هزيلة جائعة رأت في حقل القرع، قرعة فجعلت فيها ثقباً صغيراً استطاعت أن تدخل داخل القرعة، ونسيت نفسها في الداخل حتى شبعت وسمنت، فكبر حجمها ولما أرادات الخروج من جوف القرعة، لم تستطع لأن الثقب الذي دخلت منه كان صغيراً وقد جفّ، فبقيت في داخل القرعة حزينة كئيبة، ومع الأيام هزلت حتى عادت للحالة التي كانت عليها، عندما دخلتها أول مرة. عندها خرجت وكأنك يا أبو زيد ما غزيت وهكذا نحن.

هزت أم شاكر رأسها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ثم قامت وغابت فترة من الزمن ولما عادت كانت تحمل صندوقاً صغيراً ووضعته على الطاولة أمام زوجها وهي تقول:

-خذ هذا مصاغي، لعله يسهم في حل المشكلة

قال أبو شاكر بألم:

-بارك الله فيكِ، ولكن هذا كم يساوي؟

قالت:

-وإن شاء الله تعود الأيام الحلوة وتشتري لي قدها مرتين

قال متمتماً:

-إن شاء الله
أبو شاكر قضى ليلته مفكراً في أنجح الطرق للخلاص من محنته.
فحدث نفسه، سأقوم برهن منزلي بمبلغ مائة ألف دينار وأبيع آلات الحفر والجرافات والقلابات الأربع والخلاطتين وصهريجي الماء فهي تزيد على المائة ألف، وأعود كفأرة الحقل.
راقت له الفكرة ودعا جابر ليطلعه إلى ما آل إليه تفكيره.
قال جابر وهو يداري قلقه لما سمعه من أبي شاكر، ولكن ما الحل؟ غير هذا.
انتهى العمل من بناء المدارس العشر وتم تسليم المدارس لمهندس وزارة التربية والتعليم.
ولكن ماذا آل إليه حال أبي شاكر؟
لم يستطع الدفع للبنك فكان بيته الثمن فانتقل إلى بيت متواضع.
في أوائل السبعينات نشط سوق العمل في الكويت مما دفع الكثيرين من الشباب للتوجه إليها سعياً وراء العمل الذي يدر أجراً عالياً في المجالات المختلفة، معلمون، ومهندسون، جامعيون في تخصصات كثيرة، أطباء، ممرضين، وممرضات.
أبو نجيب ضاقت الدنيا في وجهه، كان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره أعزب، صمم أن يسافر إلى الكويت لعل الحظ يبتسم له، وقد شجعه على ذلك صديقه الدرعي. فأخبره أن العمل متوفر وأمثاله مطلوبون في الكويت.
استدان أبو نجيب أجرة الطريق من أحد أصدقاءه، وصل أبو نجيب مدينة الفحاحيل ولما هبط من السيارة اتصل بصديقه الدرعي، والذي سرعان ما جاء مسرعاً.
أبو نجيب لما رأى الدرعي يلبس دشداشة بيضاء، وينزل من سيارة الكاديلاك الفارهة، قال الدرعي وابتسامة عريضة تنير وجهه وهو يقول مرحباً:
-أهلاً ممدوح
لم يكتم أبو نجيب دهشته وهو يعانق صديقه عناقاً حاراً
-أهلاً بك في الكويت
-وبك
ثم فتح باب السيارة وهو يقول:
-تفضل
انطلقت السيارة حتى وقفت أمام عمارة شاهقة، ثم دخلا معاً باب العمارة، وكان في غرفة استقبال فيها شابان، ما أن رأيا الدرعي وأبا نجيب حتى قاما يرحبان بالزائر الجديد
قال الدرعي:
-الأخ أبو نجيب صديق العمر

قال (شريك الدرعي الثاني):
-أهلاً بك بيننا... لقد حدثنا الدرعي عنك كثيراً ودائماً يحدثنا عنك
-خيراً أم شراً
قال الدرعي:
-بالخير والله حتى عرفناك قبل أن نراك
-بارك الله فيكم... فإن صداقتي بالدرعي تعود إلى أيام الصبا، كنا لا نفترق حتى لما تركت المدرسة تركها هو أيضاً رغم أنه كان من الطلاب المتفوقين وعملنا في سن مبكرة معاً.
قال الدرعي وهو يقدم علبة البيبسي للضيف:
-تفضل
كان لقاء حميمياً، قال الدرعي:
-غداً بمشيئة الله تستلم العمل
قال أبو نجيب:
-وما هي طبيعة العمل
-معنا، إننا نعمل في سفلته الشوارع صحيح إنها مهمة صعبة، ولكنها تدر اجراً طيباً
قال أبو نجيب موافقاً:
-المهم أنني ساكون معلم
-طبعاً
في صباح اليوم التالي كان أبو نجيب يلبس زي العمال، بدأ العمل بهمة ونشاط.
جو الكويت الحارة التي لم يتعود عليها بعد سببت له الضجر، وإن كان قد كتم إحساسه عندما سأله الدرعي:
-كيف ترى العمل
-الحمد لله
أحس الدرعي أن صديقه يداري فقال:
-كنا مثلك في البداية ولكن مع مرور الأيام اعتدنا على جو الكويت الحار
ضحك أبو نجيب ضحكة باهتة وقال:
-أرجو ذلك
بعد أيام من وصول أبي نجيب، اعتاد العمل، واعتاد جو الكويت الحار، وكم كانت سعادته حينما قبض أول راتب له كان مبلغاً لم يحصل عليه في حياته، شعر بالزهو، وبعد أشهر اشترى سيارة روز رايز فارهة، كان عندما يسوقها يشعر بالفخر.
وكان الثلاثة يعملون بجد، ويدخرون أجورهم في أحد بنوك الفحاحيل، وفي المساء كانوا يقضون معظم الليل على شاطئ البحر، يتمتعون بمنظره المهيب، وفي أحيان كثيرة يقضون الليل في لعب الطرنيب.

مرت الأيام جميلة، وكلما مرت الأيام زادت أرصدتهم في البنك، إلى أن تعكر الجو فقد هدد صدام باحتلال الكويت، وعدها المحافظة التاسعة عشرة، مما دعا أبو نجيب والدرعي والشريك الثالث إلى سحب أرصدتهم من البنك.
كان المبلغ يقترب من المائة ألف دينار كويتي وقبل وصول جيش صدام بأيام كان الثلاثة يغادرون الكويت إلى الأردن.
احتل صدام الكويت وعاث جنوده فيها فساداً وترك كثير من الكويتيين الوطن.
كانت حرب الخليج التي أخرج فيها الجيش العراقي بالقوة وعاد الكويتيون فرحين بما آلت إليه الحرب .
التقى أبو نجيب بالدرعي وصديقهم في أحد مقاهي عمان، قال أبو نجيب:
-لدينا مال، فحتى لا يضيع، أرى أن نفكر باستغلاله في مشروع يعود علينا بالنفع.
قال الدرعي:
-نفتح مصنعاً للبسكويت
قال أبو نجيب:
-أفضل أن يكون المشروع مما نعرف لأن مصنع البسكويت يحتاج إلى مكان واسع وعمال كثيرون وفنيون ومشرفون وهذا أمر لا يناسبنا.
قال الدرعي:
-إذن ماذا ترى؟؟!!
قال أبو بنجيب بثقة:
-أرى أن نعمل في حقل المقاولات، نشتري الآليات والسيارات اللازمة والأخشاب وكل ما يلزم الإنشاءات العمرانية
قال شريكهم:
-هذا عين العقل
بعد عدة أيام من هذا اللقاء، استأجروا مكتباً في شارع السلط في عمان على مقربة من مجمع السفريات في العبدلي، استأجروا أرضاً وضعواً فيها الآليات من جرافات وهوك وكمبريسات وسيارات نقل الطوب والحجر وصهريج ماء واخشاب وعربايات نقل يدوية وفؤوس ومجارف.
كما استعانوا بمهندس ومراقب، ومحاسب، وسواقين، وحارس للمستودع وبدأوا في دخول عالم المقاولات، فرسا على شركتهم كثير من المشاريع الحكومية، في عمان والزرقاء وصار لهم مكانة وشهرة في عالم الإنشاءات العمرانية ومد الطرق وغيرها.
عاد أبو شاكر إلى مرحلة الصفر، فكان جابر الخاسر الأكبر فقد أصبح بلا عمل ولكن كيف الخروج من هذه المشكلة.

فكر جابر أن يذهب إلى بعض المقاولين ليعمل لديه، رُحب به لما يعرفون عنه من الإخلاص والمقدرة في إدارة المشاريع، فقد كان معروفاً عند المقاولين بكفاءته وخبرته الطويلة عند أبي شاكر.

صديقه عمر أحد أصدقاءه بالدراسة اتصل بجابر حيث كان عمر يعمل في إحدى شركات النفط في إحدى دول الخليج. اتصل بجابر وعرض عليه القيام ببناء بيت لهم على قطعة الأرض التي اشتراها في الصيف الماضي بالزرقاء الجديدة.

قال له:

-حسناً، سأقوم بوضع المخططات وأطلعكم عليها أولاً بأول

-نريد منك أن تتصرف بما تراه مناسباً

-أنا أعرف ذوقك

-توكل على الله

حيث خلا جابر مع نفسه، سرح به تفكيره وقال:

-مشروع عمر سيكون بداية عملي في المقاولات ... وراقت له الفكرة

قام عمر بإرسال مبلغ من المال، ذهب جابر إلى مهندس يثق به، وكانت بينهما علاقة عمل أيام كان يعمل مع أبي شاكر، أخذه إلى قطعة الأرض.

قال المهندس:

-أريد أن يكون البيت على أكمل وجه

-ولا يهمك.... سأسهر الليلة في وضع مخطط سأطلعك عليه

-حسنا اتفقنا

بعد أيام أحضر جابر عمال البناء وبدأوا في وضع الأساسات وبدأ معلم البناء ومعاونوه في البناء وفق المخططات الموضوعة، وبدأ العمل بهمة ونشاط، وجابر يسجل كل مبلغ بدقة.

وفي خلال ثلاثة أشهر كانت العمارة واقفة كما يقولون عظم، وبدأت عملية القصارة وتركيب الأبواب وتمديدات الكهرباء وتمديد خطوط المياه، وشراء ما يلزم للحمامات والمطبخ.

ثم عمد إلى إحضار التربة الحمراء، الحدائق تحيط بالبيتط

كان جابر حريصاً أن يكون بيت عمر متميزاً جودة وبهاء مما جعل عمر عندما رأى البيت أن يقف مبهوراً هو وزوجته حيث قال:

-إن جابر لم يدخر جهداً في عمله.

ثم أردف هامساً لزوجته:

-كثيرون قالوا لي أن جابر سيلعب عليك السبع أوراق، وقد حدثوني عن قصص مثيرة عن مثل ذلك. وكنت خائفاً من كثر ما سمعت من قصص النصب والاحتيال، لكن الحمد لله الحمد لله

قالت زوجته:
-الحمد لله
في تلك الأثناء وصل جابر والابتسامة مشرقة على وجهه قائلاً:
-ها ما رأيكم؟
قال عمر:
-بارك الله فيك... لقد كفيت ووفيت
-إني أريد أن يكون بيت صديقي اجمل بيت
ثم سار نحو باب البيت فقام جابر بفتح الباب الرئيسي قائلاً:
-تفضلا أيها الأعزاء
-يا الله ما أجمل البيت من الداخل
قال زوجها موافقاً:
-لقد جاوز حلمي

******

التقى عمر الجاروشي بزميله صلاح الشيخ في محطة المحروقات فما أن رآه عمر حتى صاح بابتهاج:
-الأستاذ صلاح الشيخ غير معقول
-أهلاً أخ عمر
-متى قدمت من الإمارات؟
-قبل ثلاثة أيام
ثم أردف قائلاً بشوق:
-قل لي ما أخبار بيتك؟
قال عمر والبسمة تضيء وجهه:
-أجمل وأروع مما كانت أتصور
-الله يهنيك أريد أن أراه فإذا أعجبني أجعل جابر يبني لي مثله
-زرنا وسترى
-أريد العنوان حتى آتيك مع أم العيال.
ثم سكت برهة وتابع قائلاً:
-على الأقل نبارك لكم بالسكنى الجديدة
-أهلاً بك وقتما شئت

قال صلاح الشيخ:
-الليلة إن لم يكن عندكم مانع.

-يا أخي كما تشاء عنوان البيت الزرقاء الجديدة شارع 16 قرب المدرسة الثانوية وسأكون بانتظارك.
-عال العال
وقفت سيارة صلاح الشيخ قريباً من منزل عمر، فقام عمر بالاتصال بصلاح قائلاً:
-أهلاً وسهلا، انتظروني إني قادم إليك
نزل عمر بسرعة مرحباً:
-أهلاً وسهلاً
-أهلاً بك
ودخلا باحة المنزل، كان صلاح يجول بعينيه في البيت، وهو يهز رأسه إعجاباً، أما زوجته فكانت أشد دهشة فقالت:
-هذا والله بيت العمر
ثم التفتت إلى عمر قائلة:
-ما شاء إنه بيت جميل
قال عمر:
-مرحباً
-أهلاً وسهلاً زارتنا البركة
لما دخلا البيت ورأياه قال صلاح الشيخ:
-اللهم صل على النبي
قال عمر:
-تفضلوا
قالت زوجة صلاح الشيخ:
-إن لم يكن لديهم مانع، أريد أن ألقي نظرة على تقسيم البيت.
قال عمر:
-البيت بيتكم، تفرجي كما تشائين
قالت سعدية:
-تفضلي
كانت زوجة صلاح الشيخ السيدة هبة قد بهرها تقسيم البيت، وجمال أثاثه فالتفتت إلى زوجها قائلة:
-أريد بيتاً مثل هذا
قال صلاح:
-لك ما تشائين، فعلاً أنه بيت رائع، وأثاثة أكثر روعة
كانت زوجة صلاح الشيخ مع سعدية في المطبخ، تعدان الشاي بينما جلس عمر مع زميله صلاح في الشرفة يتحادثان ويتذكران أيام العمل في الإمارات.

قال صلاح الشيخ وهو يحتسي الشاي:
-أريد منك يا اخ عمر أن توصلني لجابر، أريد منه أن يبني لنا بيتاً بمواصفات بيتك
قال عمر وهو يبتسم:
-كما تريد
-إن بيتك بهرني حقاً، إن شاء الله ترى السعادة فيه
قال عمر:
-سأجمعك به في الوقت الذي تريد
وتفتحت أبواب السعادة لجابر وكثرت مشاريعه حتى غدا من أشهر المقاولين في الأردن.
وقد تعدت مشاريعه الزرقاء، فكانت في عمان واربد، وكان يساعده في مشاريعه عدد من المهندسين، وعلا صيته كواحد من أمهر المقاولين.
صدقاً في الوقت بالعمل وصدقاً في المواد يعمل وفق المخططات مع أمانة في البناء والتسليح، لا يميل ولا ينحرف.
كان جابر سعيداً حينما رأى زوجته تتهاوى في مشيها، فقد أحس بقرب مولودهما الأول، سأسميه كمال على اسم والدي فإن الناس ينادونني به حتى قبل أن أتزوج "أبو كمال".
في تلك الليلة أفاق جابر على تأوهات زوجته وهي تقول:
-يا رب... يا رب
أفاق جابر فزعاً وقال:
-خير يا امرأة
-أحسّ بانني سأضع
-إذن لنذهب إلى مستشفى الحكمة
قام بسرعة ولبس ملابسه بينما كانت تناوله شنطة فيها كل ما يلزم المولود.
ما إن وصلا المستشفى، قام الطبيب المناوب بإجراء بعض الفحوصات ثم أمر الممرضة المختصة بإعداد غرفة الولادة.
في تلك الأثناء كان جابر يتضرع إلى الله أن تقوم زوجته بالسلامة، وأن تضع مولودها بأمن وسلام.
مرت ساعة من الآن تقريباً، أحس جابر أنها دهراً، وفجأة قطع حبل أفكاره صراخ الطفل.
فقال بسره: الحمد لله، ثم خرج الطبيب من غرفة التوليد وهو يبتسم :
- مبارك ، لقد رزقك الله بطفل
-الله يبارك فيك
تابع الطبيب:

- بعد قليل تستطيع أن تطمئن على الوالدة والمولود
شكر جابر الطبيب وأثنى عليه:
دخل جابر الغرفة فوجد زوجته راقدة على السرير وبجوارها كمال الصغير، بادر زوجته:
-الحمد لله على السلامة
-الله يسلمك
ثم حاولت النهوض وهي تقول:
-إنه يشبهك تماماً
نظر إلى الطفل وقبله وهو يقول:
- ما شاء ... اللهم صل على النبي

******

كان جابر طموحاً، علمته الحياة أن النجاح فيها، يحتاج على عزيمة وتخطيط دونما إندفاع أو تخبط ولهذا كان دائم الحرص على القيام بواجباته بتعقل، قالت له زوجته ذات يوم وهما يتناولان طعام العشاء:
- تبني العمارات للناس وتتركنا
فقال بحزم:
-صدقيني إنني لم أنس ذلك، فقط اشتريت قطعة أرض في الزرقاء الجديدة في أرقى حي، سأريك إياها... وسأقيم عليها بيت يليق بك وبولدنا كمال.
ضحكت ضحكة مليئة بالسعادة وهي تقول:
- الله يقويك ويبارك فيك
- ومن لي غير سيدتي الجميلة وولدنا الحبيب كمال
كان المهندس عبدالفتاح أحد المهندسين الذين يشرفون على مشاريع جابر، كان مهندساً مثقفاً يقوم بالإشراف على المشاريع بهمة وإخلاص... عيبه الوحيد أنه يطلق لنفسه العنان جرياً وراء شهواته، يعشق النساء، وكان يقضي الساعات في أحضان بنات الهوى.
قال له جابر ذات يوم:
- أنت مهندس قليلة أمثالك ولا عيب عندك سوى تضييع أموالك وراء النساء، لماذا لا تتزوج وتضع حداً لنزواتك.
- أنا أعجب كيف تطيق العيش مع واحدة فقط.
-الواحدة الشريفة بنت الأصل خير من آلاف النساء المومسات.
-ساحاول، ولكن هيهات قال المهندس عبد الفتاح
- أريد أن أطلعك على سر لا يعرفه إلا القلة

لقد تزوجت امرأة زرعت في نفسي القلق والشكوك عشت معها في جحيم، حتى جعلتني أحيا في شقاء ووهم حتى طلقتها غير آسف عليها.

قال جابر:
-جرب مرة أخرى، فالنساء ليست كلهم كمطلقتك
-لا يا عزيزي جربت مرة ولن أكرر المأساة
- وهل ستقضي حياتك على ما أنت عليه؟
- أنت مثل أمي، دائماً كلما رأتني تفتح أسطوانة زواجي وإن الزواج نصف الدين، وأنها تريد أن تفرح بي قبل أن تموت.
-وماذا كنت تجيبها؟
-أخرج من البيت غاضباً.
-يا رجل اتق الله وعد إلى رشدك
-أرجو ذلك

******

بينما كان جابر في مكتبه، دخل عليه أبو راشد العبندري، رحب جابر بالرجل الذي قال:
-أريد منك بناء بيت لي، في جبل الأمير حسن، ولكن ليس عندي نقود
قال جابر وهو يبتسم ابتسامة باهته وقال:
- إذا لم يكن معك نقود، فلماذا تبني بيتاً؟
قال أبو راشد مقاطعاً جابر:
- أسمعت بالمقايضة؟
-نعم سمعت
-عال عندي مزرعة كبيرة مغروسة بالأشجار، زيتون، كمثرى، ولوز، وعنب، وفيها مساحات لزراعة البقول والخضراوات وفي المزرعة بئر وفيرة المياه.
-قال جابر وهو يهز رأسه:
- ومتى تريني المزرعة؟!
قال الرجل بسرعة:
- إن شئت الآن
قال جابر:
- خير البر عاجله
كانت المزرعة على طريق جرش ضمن قرى بني هاشم، في منطقة تطل على وادي الزرقاء في منطقة هادئة جميلة.
قال أبو راشد:

- هذه المزرعة يا أخ جابر فيها من الأشجار المثمرة من كل نوع يخطر على بالك، إضافة إلى الزيتون، ثم أشار إلى بقعة مزروعة بالبقول فاصوليا، باميا، بندورة وخس موزعة بترتيب وتنسيق جيد.
ثم أردف قائلاً:
- عندي عامل مصري يقوم بالإشراف على المزرعة وهو مجاز اليوم، وسيعود غداً صباحاً.
ثم سار نحو بيت ريفي وقال له:
- هذا البيت
ثم أدخل المفتاح وعالجه حتى فتح ودخلا البيت الذي يتكون من غرفتين ومنافعهما ومن الخلف يوجد باب لغرفة مع منافعها للأدوات الزراعية ومكان لنوم العامل.
ثم أراه البئر القريبة من البيت.
وقال له:
-هذه البئر كلفتني أكثر من عشرة آلاف دينار يتم سقي المزرعة منها.
قال جابر:
- كم مساحة الأرض؟
قال أبو راشد:
- أربعة دونمات.
أعجب جابر بالمزرعة أيما إعجاب موقع جميع مشرف على الوادي، منبسطة، أشجار يانعة وإن كانت صغيرة لكنها تبشر بالخير.
قال لأبي راشد:
-وكم تريد ثمناً لها؟
قال أبو راشد:
-صدقني لقد دفعوا بها في العام الماضي أربعين ألفاً، فرفضت.
ثم تابع يقول:
- والله لولا أن أولادي لا يهتمون بها ولا يحبون أن يأتوا إليها، وأنا رجل تقدم بي العمر، وضعفت قواي، لهذا أحببت أن أبيعها.
والله إنها جنة فيها كل شيء من الفواكه والأشجار والظلال، والمياه
قال جابر موافقاً:
- ما تقوله صحيح، إنها جميلة وارفة الظلال، منظرها يشفي العليل
ثم أردف قائلاً:
- وكم ستبيعها لي؟
- لا أبيع ولا أشتري، تقوم ببناء فيلا تتألف من مساحة مائة وستين متراً لأن الأرض عندي مساحتها دونم ونصف

قال جابر:
- إذن تريد إحاطة الفيلا بحدائق كأنك لم تنس المزرعة
ضحك أبو راشد وقال:
- هل هناك أجمل من الأشجار والأزهار والوجه الحسن!!!
ضحك الاثنان معاً.
قام جابر بحساب المزرعة وتكاليف البناء فوجد أن الأمر لا يزيد أو يقل عن خمسة وثلاثين ألف دينار
فقال لأبي راشد وهو يطلعه على حساباته:
- إن الأمر -كما ترى – لا يزيد ولا ينقص عن خمسة وثلاثين ألف
ثم أردف قائلاً:
- طبعاً، كل الأمور ستكون سوبر ديلوكس وتسليم مفتاح
قال أبو راشد:
- نقرأ الفاتحة...
وقرءا الفاتحة معاً.

******

عندما عاد جابر إلى بيته كان الليل قد أرخى سدوله، استقبلته زوجته بالترحاب.
- الله يعطيك العافية
- بارك الله فيك
- كيف كمال؟
-إنه بخير وعافية ودائماً يردد بابا بابا
وصل إلى الغرفة توقف عند سرير الطفل، فضاحكه ثم حمله وصار يداعبه حتى ابتسم الطفل ابتسامة سحبت كل أثر التعب من وجه أبيه الحاني وقال وهو ينظر إليه برقة:
-لقد اشتريك لك يا بطل مزرعة
قالت ليلى:
-أين؟
-على طريق جرش وإن شاء الله يوم الجمعة تقضي بها يومنا
رجع أبو راشد إلى بيته، فرحبت به زوجته فبادرها:
-لقد استرحنا من المزرعة
قالت موافقة:
- عملت خيراً، فقد تقدم بنا العمر، وأنا مريضة وأنت لم تعد قادراً على متابعة أمورها، والأولاد الله يهديهم لا يحبون حتى الذهاب إليها
قال موافقاً:

-ولهذا بعتها... ولكن أتدرين بكم؟
قالت مستفسرة:
- بكم؟
قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:
-بفيلا
وقص عليها ما جرى بينه وبين جابر
فقالت ضاحكة:
- إذن القبعة بالربعة
-نعم
كان جابر أكبر أخوته الثلاثة عمران وصالح وصدقي الأصغر، كان صدقي يعمل في عيادة طبيب أسنان في شارع السعادة. تعرف إليه جابر من خلال أخيه صدقي، ومع الأيام نمت بينهما صداقة متينة.
يأتي الطبيب ويُدعى طلال أسعد إلى مكتب جابر فيتحادثان في أمور كثيرة يغلب عليها الطابع الشخصي.
وكثيراً ما كان الطبيب يصر على جابر أن يزوره في بيته، وأمام إلحاح الطبيب قال جابر موافقاً على دعوة الطبيب:
-حسناً سالبي دعوتك بعد غد إن شاء الله.
قال الطبيب:
-زيارتك يا أخ جابر شرف كبير لنا
******
وصل جابر منزل الطبيب، كان بيتاً لا يليق بمكانة طبيب، بيت عادي، أثاث عادي جداً.
قال الطبيب:
- زارنا الهنا... أهلاً وسهلاً
- بارك الله فيك
تركه الطبيب ودخل ليطلب من زوجته إعداد واجب الضيافة.
سرح جابر في تفكيره في أمر هذا الطبيب الذي يعيش في بيت متواضع، وأيقن أن الطبيب تغلف حياته سر يكمن وراء ما هو عليه من ضيق مادي.
وقطع أفكاره صوت الطبيب يقول:
-أهلاً وسهلاً
تابع الطبيب وقد قرأ ما في عيني جابر من تساؤلات
-أهذا بيت طبيب؟
قال جابر ليخفف العبء عن محدثه فقال:

-الله يخلق العود ثم يُلبسه الأوراق والثمار ولكن هل العيادة تدر دخلاً جيداً؟
قال الطبيب بأسى:
- إنها تدر دخلاً طيباً، وتقول طالما أنها تدر دخلاً ممتازاً فلماذا تعيش في بيت بسيط لا يليق بطبيب معروف؟
صار جابر متشوقاً ليعرف السر الذي يجعل الطبيب يرضى بالعيش بهذا البيت البسيط.
قال الطبيب بحزن وأسى:
- منذ خمس سنوات وأمي تعاني من مرض عضال، دخلت أكثر من عملية لاستئصال هذا الورم الخبيث منها، كلفنا مبالغ طائلة، عدا الأدوية، أضف إلى ذلك كله مصاريف بيت أبي فليس له مُعيناً بعد الله غيري، أضف إلى ذلك مصاريف بيتي والعيادة وأجرة السكرتير الأخ صدقي.
قال له جابر وهو يتنهد تنهيدة خرجت من أعماق قلبه الذي نما على جدرانه الأسى والحزن، فقال مواسياً:
-الله يكون في عونك
في تلك اللحظة دخلت زوجة الطبيب تحمل صينية عليها إبريق شاي وثلاث كاسات من النوع الفاخر.
فقال زوجها يحثها على الدخول:
-أدخلي الأخ جابر منا وفينا لا غريب إلا الشيطان
قالت نادية:
- مساء الخير، أهلاً وسهلاً
قال طلال أسعد:
-اجلسي
فجلست وأخذت تصب الشاي وهي تقول:
-عفواً أستاذ جابر كم ملعقة من السكر؟
-اثنتين
قال طلال أسعد:
-إن نادية تدرس في الجامعة، وقد نجحت في امتحان الشامل في كليات المجتمع وحصلت على معدل أهلها للتجسير، فهي الآن سنة ثالثة أدب عربي
قال جابر:
- ما شاء الله
كانت نادية تتحدث وكأنها تعرفه من زمن بعيد، فيما كانت بثيابها الخفيفة الشفافة التي تظهر جمال عُنقها وشيئاً من صدرها بينما تركت شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها وبضع خصلات من الشعر ترف على جبينها فيزدها ألقاً وجمالاً.

استأذن طلال وهو يغادر غرفة الضيوف ليحضر علبة سجايره كان جابر شارد الذهن، والمرأة تحدثه عن الجامعة والدروس، كانت كثيراً ما تترك عينيها لتحدق في عينيه، فيعمد إلى تحويل نظراته عنها.

قال وهي تحدق في عينيه:

-إن طلال يحبك كثيراً... ودائماً يحدثني عنك حتى تشوقت لأراك.

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

-كيف وجدتني؟

محدقاً في عينيها العسليتين ثم تابعت وهي تغرس عينيها في عينيه:

-كنت اظنك في خريف العمر، فأنت شاب مليء بالحيوية والرقة

في تلك اللحظة دخل طلال قائلاً:

-أهلاً وسهلاً

وقفت نادية وهي ترفع خصلات شعرها وقد رفعت عينيها قائلة:

-استأذن

قال طلال مداعباً:

-هاتي ما عندنا للضيف

قالت وقد بدا على وجهها الحرج:

-والله نسيت حالاً سيكون كل شيء جاهزاً

قال طلال:

-كم كنت أود إسعادها، لكن ما باليد حيلة

قال جابر:

-أسأل الله أن تكونا سعيدين

في تلك اللحظة دخلت نادية حاملة طبقاً عليه ثلاثة صحون من النوع الفاخر ملأى بالعنب والتفاح والموز، ووضعت أمام جابر طبقاً ثم أمام زوجها وطبقاً لها.

تناول جابر بضع حبات من العنب ودفعها في فمه، ثم توقف فقال طلال حاثاً جابر على متابعة تناول الفاكهة:

-كُل يا رجل

-الله يديمها نعمة

قالت نادية وهي تتناول من صحن جابر تفاحة حمراء.

-خذها من يدي

قال طلال:

-لا تكسف المرأة اقبلها.

قال جابر وهو يتناول التفاحة:

-شكرا

خرج جابر من بيت الطبيب، وفي رأسه تدور أفكار شتى، ووجه نادية المشرق وعيناها الساحرتان شيء لا يقاوم.
حاول أن يطرد الأفكار من رأسه لكن بدون جدوى... نادية وحديثها لا يزالان يسيطران على تفكيره.
نام في تلك الليلة وطيف نادية لا يزال ماثلاً في مخيلته.

******

في المساء كان الطبيب طلال أسعد في مكتب جابر قال:
-جئت استفسر عن غياب صدقي عن العيادة اليوم، أرجو أن يكون المانع خيراً
قال جابر معتذراً:
-الحقّ عليّ لقد نسيت فقد أخبرني أنه تغيب اليوم لذهابه لتأجيل خدمة العلم.
قال طلال:
-إذا كان ذلك.... بسيطة كنت أظن أن مكروهاً حصل له.
قال جابر:
-بارك الله فيك
لم يكن مجيء الطبيب طلال أسعد إلى مكتب جابر هو السبب صدقي ولكنه كان يخطط ليقوم جابر ببناء بيت له، منزل يليق بطبيب.
قال طلال وقد تصنع الشرود والحرج فقال:
-والله لا أدري ماذا أقول لك؟
قال جابر يحثه على الحديث:
-تكلم يا رجل، نحن أهل
-الحقيقة عرضت نادية عليّ فكرة بناء بيت، وأن تقوم أنت بذلك.
-أنا جاهز
-اشترينا قطعة أرض بسعر مناسب في ضاحية مكة ونريد بناء بيت يليق بي كطبيب
قال جابر:
-أنا موافق، ولكن متى؟
قال طلال وقد أبدى شيئاً من التردد:
-لكن ما بقي من مال لا يتعدى الألفي دينار وما يتبقى من تكاليف أدفعه لك على أقساط شهرية، لا تجاملني إن كنت تستطيع تلبية طلبي، وإن كنت لا تستطيع لا تخجل.
قال جابر بأدب جم:
-لك ما تريد، سأبني لك فيلا، مثل الفيلا التي بنيتها لصديقي عمر، وسأريك إياها، فإن أعجبتك وابتسم إنها ستعجبك سأقوم بالعمل ريثما أتم المشروع الذي أعمل به.

قال طلال أسعد:
-إن نادية عندما أخبرها بذلك ستطير من الفرح
قال جابر:
-غداً في الساعة الخامسة مساء تمر عليّ لتريني قطعة الأرض التي سنقيم عليها الفيلا
-حسناً
ثم قام وهو يقول:
-غداً في الخامسة مساء وربما تأتي معي نادية لأن لها شوقاً لترى قطعة الأرض ولها رأي في تصميم البناء
خرج الطبيب طلال، وترك جابر مع فكره، إذن غداً سنرى نادية التي حفرت على جدران قلبه الشوق، وقال في نفسه:
-وما ذنب زوجتي بهذا الحب، إني أُحبها وقد أعطتني الحب والتقدير، ولم تدخر جهداً في بث السعادة والسرور والرضا في نفسي وهي أم ولدي... ولكن هذا الطارئ المفاجئ الذي تمكن مني، رغماً عني، آه لو أستطيع نسيانه.

في تلك اللحظة تخيل أن المهندس عبدالفتاح ينظر إليه ساخراً وكأنه يقول له " يا أيها الرجل المعلم غيره هل ادخرت لنفسك التعليم".
أجل يا عبدالفتاح كنت أُرشدك وأنصحك بالابتعاد عن النساء يا إلهي إنني اقترب من دائرة اللهب.
لكن وجه نادية الجميل يترأى له ويحاول أن يطرد طيفها ولكنه يحاصره.
فقال يحدث نفسه: سأحاول أن ابتعد عنها، ولماذا سأحاول بل عليّ أن أتجنب رؤيتها.
كلام الليل يمحوه النهار... فما أن رأى نادية تدخل مكتبه حتى هوى شيء في داخله.
فقالت:
-مساء الخير
هبّ جابر واقفاً مرحباً وهو يقول بلطف:
-أهلاً وسهلاً ... تفضلي
-ألم يأت طلال بعد قال جابر بأدب جم
-لا لم يأتِ
قالت وهي ترفع خصلات الشعر عن عينها اليسرى:
-لقت تلفن إليّ يخبرني أن ألتقيه عندك الساعة الخامسة
ثم نظرت إلى ساعتها وأردفت قائلة:
-الآن الساعة الخامسة والنصف

قال وهو يخرج الموبايل من جيبه:
-سأتصل به
قالت نادية بسرعة:
-أكيد جاءه مرضى
اتصل جابر بالطبيب وسمع على الطرف الآخر صوت جابر:
- أهلاً جابر.... عندك حرمنا المصون
- إنها بانتظارك
- نصف ساعة أكون عندك، عندي مريض
- نحن بالانتظار
قالت نادية بحنان:
- كيف أحوالك؟
-عال والحمد لله
-لقد اشتقت لك كثيراً
نظر في عينيها فغاب في عمقهما وهو يقول:
-أنت مجنونة
قالت وهي تحدق في عينه:
-حقاً أنني مجنونة بك!
قال بشرود:
-لقد قلبت كياني، وجهك الجميل يحاصرني في كل مكان
قالت بهمس:
-إننا يصدق علينا قول شاعر نسيت اسمه يقول:
قلت يا محبوب أضناني العنا قال الحال كما أنت أنا
مرت فترة صمت بينما كان جابر يرتب اوراقاً كانت أمامه ويضعها في مغلف ثم دفعها في درج مكتبه. في تلك الأثناء كان طلال يدخل إلى المكتب:
-السلام عليكم
-وعليكم السلام... أين أنت يا رجل
قال الطبيب معتذراً:
-كنت أهم بالخروج فإذا شباب يرافقون أباهم الذي يصيح من شدة ألم أضراسه وقد قمت بخلع ضرس له حتى عاد إليه الهدوء
قال جابر:
-الله يعطيك العافية
جلس الطبيب ثم أخرج من جيبه مبلغ الألفي دينار وهويقول لجابر:
-تفضل الحيلة والفتيلة

وإذا بنادية زوجته تخرج مضروفاً من حقيبتها وتقول لجابر:
-وهذا مصاغ خذه وتصرف به أو اجعله رهنا عندك
هب جابر واقفاً كمن لسعته أفعى وقال:
-أرجعي مصاغك يا امرأة إلى حقيبتك
قال طلال أسعد:
- لقد اتفقنا أن نعطيك المصاغ لأننا نعرف البناء يكلف كثيراً، وأخبرتها أنني بعد الانتهاء من البناء سأشتري لها ضعفه.
قال جابر وقد هدأ روعه:
-توكل على الله، نحن على ما اتفقنا عليه، تعطيني في نهاية كل شهر مبلغا من المال وكل شيء الذي ينقص بخلص.
قال طلال:
-إنك تحاصرني بأفضالك يا أخ جابر
قال جابر:
-توكل على الله
أخرج جابر دفتر حساباته وسجل ما دفعه طلال أسعد ثم استأذن طلال أسعد قائلاً لزوجته:
-هيا بنا
ثم قال جابر:
-شكراً لك
عندما غادر الطبيب وزوجته مكتب جابر وركبا سيارتهما قال لزوجته:
-لقد قلت لكِ أنه سيرفض أخذ المصاغ أكيد حياء منك، إنه رجل طيب.
قالت نادية:
-حقاً إنه رجل شهم

******

بينما كان جابر في مزرعته، رأى بعض الرعاة، يرعون أغنامهم قريباً من المزرعة، بل رأى عدداً من الأغنام يدخلون من بين الأسلاك إلى داخل المزرعة، هب مسرعاً واخرج الأغنام من المزرعة ثم صاح على الراعي:
-يا رجل ابتعد بأغنامك عن المزرعة
قال الراعي:
-لا تؤاخذني إني آسف سأذهب بهم إلى مكان بعيد
في تلك الفترة تأكد لجابر أن عليه أن يجعل سوراً حول مزرعته، مهما كلف من ثمن. ثم سرح به تفكيره أما واجهة المزرعة من الحجر لتكون أجمل مزرعة في المنطقة.

طاف في المزرعة، فأحس بنشوة كبيرة وازدهار كبير بما رأى من خضرة وظلال وطيور تشدو أجمل الألحان فقال شاكراً الله:

-الحمد لله العاطي الرزاق

أتم جابر بناء بيته، فقام بتأثيثه بأغلى الأثاث، غرفة الضيوف الواسعة فرشها بالسجاد العجمي الفاخر وبمقاعد راقية فاخرة، وستاير، حرص أن تكون من النوع النادر الثمين، وثريات، وطاولة من جذع شجرة ضخمة.

كان حديث الأقارب والأصدقاء بيت جابر، الجميل الرائع، وأثاثه الجميل الفاخر، وكان ذلك يملأ جابر بالزهو والسعادة.

أما زوجته ليلى فكانت أكثر فرحاً، وتحس بأنها مليكة هذا المنزل الرائع. كانت أجمل لحظات حياتها، تلك التي كانت تقضيها في إرضاع طفلها وتحمله وتطوف حول المنزل بين الأشجار الصغيرة والأزهار المزروعة على جانبي البيت، أو حين تضع الطفل في الأرجوحة وهي تغني له بعض الأغاني التي حفظتها عن أمها.

وحين يغلبه النوم تحمله بكل رفق وحنان وتضعه في سريره، ثم تدخل إلى المطبخ لتعد طعام الغداء ، فجابر سيأتي للبيت الساعة الثانية ظهراً ويجب أن يكون الغداء جاهزاً لأن زوجها الحبيب سيكون جائعاً.

أخرج موبايلها موسيقى جميلة، فنظرت إلى الاسم الذي يتصل بها فإذا به جابر قال:

-مساء الخير

-مساء النور... أتريدين شيئاً أحضره معي

قالت:

-كل شيء على ما يرام، نريد فقط علبة حليب للولد

-على راسي

-تسلم

وصل جابر بيته تعباً، لأنه منذ الصباح وهو يتنقل في المشاريع التي يقوم بإنشائها في أماكن متفرقة في الزرقاء، فاستقبلته زوجته بابتسامة جميلة.

كان يحس بالخجل منها، فهي ودودة مطيعة تبذل قصارى جهدها لكي تسعده، أحس بالذنب لأنه يخونها

بينما كان يتناولان طعام الغداء قال لها:

-سلمت يداك. فطعامك شهي لذيذ

-فيه العافية

ثم قال لها:

-أريد أن أنام، ولكن قبل ذلك أريد أن أر الولد كمال

-إنه نائم

-إذن اذهب وأطل عليه
توجه نحو سرير الطفل الذي كان نائماً كملاك صغير وقال:
-ليحرسه الله ويرعاه
قالت مؤمنة على قوله:
-آمين يا رب العالمين
ثم ذهب جابر إلى سريره، والتفت إلى زوجته قائلاً:
-أيقظيني الساعة الرابعة، لأن لدي عملاً علي إنجازه
-إن شاء الله

******

أيقظت ليلى زوجها في الساعة الخامسة، فلما أفاق كان يتثاءب، نظر إلى الساعة فوجدها قد جاوزت الخامسة بقليل فقال لزوجته بغضب:
-ألم أقل لك أيقظيني الساعة الرابعة
-بلى، ولكن رأيتك تعباً مجهداً، فقلت أدعه حتى يستريح
-عال العال، إذن الرجل الذي وعدته وحددت له الوقت أنا سيقول أنني لا أكترث به... أعطني النقال حتى اتصل
أسرعت زوجته، وأحضرت النقال... الذي سرعان ما أخذ يبحث عن رقمه وهاتفه:
-أبو إسماعيل... السلام عليكم، آسف لتأخري عنك.
-يا سيدي المهم إنك بخير
-ثلث ساعة وأكون عندك
-أنا بالانتظار

ليس جابر ملابسه وودع زوجته وانطلق بسيارته في سرعة كبيرة كان أبو إسماعيل في المكتب يطالع الجريدة باهتمام عندما قطع عليه جابر عندما دخل المكتب:
-السلام عليكم
-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
-آسف آسف لتأخري عليك
قال أبو إسماعيل ليرفع الحرج عن جابر:
-لا عليك
جلس جابر وراء مكتبه واخرج أوراقاً كان قد أعدها سابقاً وقدمها لأبو إسماعيل وهو يقول:
-هذه أوراق الاتفاقية، إقرأها جيداً

تناول أبو إسماعيل الأوراق ثم أخرج نظارته السميكة من جيبه وأخذ يقرأ بصمت ولما انتهى من قراءة العقد، أخرج قلمه من جيبه ووقع على عقد العمل، واخذ نسخة منه وطواها ووضعها في جيبه، وقال وهو يتناول جابر نسخته:

-على بركة الله

قال جابر

-لقد اطلعت المساح سعود الحسن على قطعة الأرض، وطلبت منه أن يرسم عدة مخططات للبناء وقد قام برسم مخططات لتختار ما تراه الأجمل.

قال أبو إسماعيل:

-أريدك أنت تختار، فأنت ذو خبرة وذوق

قال جابر:

-استغفر الله، على كل حال خذ المخططات الثلاثة، واطلع أم العيال عليها، لتختار الأنسب والأجمل.

ناول جابر المخططات الثلاثة وهو يقول:

-اقترب عندي لترى التصاميم

اقترب أبو إسماعيل واخذ جابر يشرح توزيع غرف نوم ثلاثة وصالون واسع رحب وهنا المطبخ.

قال جابر:

-على كل حال هذه المخططات مؤقتة ويمكن وضع أخرى جديدة

قال أبو إسماعيل:

-صدقني كل واحد أحلى من الثاني وإذا أردت تحيره خيره

ضحك جابر وقال:

-أرى رقم اثنين هو الأجمل في نظري من حيث توزيع الغرف والمدخل والدرج، والمساحات المتروكة للتهوية، لكن هذا لا يمنع من أن تطلع أم العيال وتأخذ برأيها.

تناول أبو إسماعيل المخططات الثلاثة، وطواها ودسها في جيبه، ثم وقف واستأذن بالذهاب.

******

في الساعة الثانية من ظهر اليوم، حيث كان الجو حاراً حيث المراوح لا تعطي إلا هواءً ساخناً من شدة الحر كان جابر في مكتبه، في ضيق من شدة الحر، تتأوب بخمول حيث أخرج النقال موسيقى، أخرج النقال من جيبه ونظر إلى الاسم الذي يتصل به، كان الطبيب طلال أسعد فتح النقال قائلاً:

-أهلاً دكتور

-أهلاً بك، لقد مررت على الورشة، ولم أجد العمال هناك.

-آه العمال طلبت منهم الذهاب إلى ورشة ثانية يتوجب أن يكونوا فيها لوجود صبة، وإن شاء الله غداً يكونون في ورشتهم
قال الدكتور طلال أسعد:
-الله يقويك
قال جابر:
-كل شيء سيكون على ما يرام... ولا يهمك
-إن شاء الله.... السلام عليكم
سرح جابر بأفكاره، وقد انبعثت في خياله نادية، وقطع أحلامه موسيقى نقالة، نظر إلى النقال ليرى من يطلبه، كانت نادية.... شيء هوى في داخله وفتح النقال:
-مساء الخير
-مساء النور... أين أنت يا رجل وهي تغني
والله اشتقنا لك، اشتقنا لعيونك
-ليس مثلي
قالت بشوق كبير:
-يا حبيبي إن صوتك يبعث في نفسي السعادة كم أنا متلهفة لرؤيتك
قال بهيام:
-أريد أن أراكِ
قالت وهي تضحك:
-نادني من آخر الدنيا أُلبي
-ياه، أنتِ شاعرة
-ماذا أصنع إن حبك في قلبي شرش فاحرص على قلبي لإنك فيه
قال بشوق:
-أريد أن أراك
-اليوم لا أستطيع، ولكن غداً سأطلب من طلال أن تأخذني إلى العمارة، وأنا متأكدة أنه سيعتذر لأنه لا يستطيع ترك العيادة.
قال مستفسراً:
-إذن كيف ستأتين؟
قالت:
-اطلب منه يطلب منك أن تجيء لأخذي
-وهل سيوافق؟
-إنه يطمئن لك كثيراً، وقد حدثني كثيراً عن شهامتك
-والله لا أدري بماذا أجيبك!!
-ولا يهمك، سترى أنه هو الذي سيطلب منك أن تأتي لمرافقتي.

قال متسائلاً:
-سنرى
-إلى الملتقى غداً، يا ساكن القلب ويا معذبي
-إلى الملتقي يا قمري
******
جابر في مكتبه في حالة عدم توازن، طقس حار ملأ النفس سأماً والحرارة تجاوزت الأربعين، والدكتور طلال لم يتصل به، إذن نادية لن يراها اليوم، والساعة تقترب من الثالثة.
-آه ما أقسى الانتظار، والزمن توقف تماماً.
نظر إلى ساعة يده فوجدها لا تزال الثانية والنصف، حدثته نفسه أن يتصل بها، وبالفعل أخرج نقاله، ولكن أعاده وكأن شيئاً يقول له لا تفعل.
شعر بغصة تنشب في حلقه، حاصره الملل، وهواء المروحة الساخن يلفح وجهه.
واخيراً سمع موسيقى جواله، فتحه بسرعة وقال:
-مساء الخير
كانت زوجته ليلى، شعر بخيبة امل كبيرة
-أهلاً مساء الخير
-قلقت عليك تأخرت طويلاً
-العمل أنساني
قالت بلطف:
-الله يعطيك العافية، إن لبدنك عليك حقاُ
-أنا مشغول حتى المساء
قالت بحنان:
-الأكل جاهز
-كلي وقبلي الصغير
-لا تتأخر نحن بالانتظار
أغلق النقال وسرح في تفكيره وقال يحدث نفسه:
-اكيد إن الدكتور طلال لم يوافق على ذهاب زوجته نادية معي.
في تلك الفترة كان نقاله يخرج موسيقى، نظر إلى الرقم الذي يطلبه، فتح نقاله، كان صوت أبي إسماعيل:
-أهلاً أبا إسماعيل
-أهلاً بك
-أم العيال اختارت المخطط الثاني الذي أبديت إعجابك به، على بركة الله اعتمده.
السلام عليكم

عاد جابر إلى حيرته وذهوله، وهو يحدث نفسه إن هذا ليس معقولاً، لقد أكدت أن زوجها سيتحدث إليّ لآخذ زوجته إلى الورشة... أكيد إن حرارة الجو هي كانت وراء السر... فلننتظر.

سمع نقاله يخرج موسيقى، كان الدكتور طلال في الطرف الآخر، فقال جابر:

-أهلاً دكتور

-والله إني محرج منك

-لا دكتور نحن إخوان

-يا سيدي زوجتنا المصون تريد رؤية البيت

-يا سيدي وقت ما تشاؤون، أنا جاهز

قال الدكتور طلال:

-إنني لا أستطيع الذهاب معك، لأن العيادة عندي ملآنة بالمرضى فاعذرني.

-نترك الأمر لغد، فإن غداً لناظره قريب.

-يا سيدي إنها مصرة، وأنا ربما في الغد، سأكون مشغولاً، والله أنا محرج منك

-لا يا أخي

-إنها ستكون في العيادة الساعة الخامسة مساءاً لتأخذها ولا تنسى أنه سيكون معها رجل ابني حسان

ضحك جابر وهو يقول:

-إن شاء الله سأكون في الوقت المحدد

-اتفقنا –السلام عليكم

غمر جابر شعور غامض ونمت في صدره الشكوك، أيكون الطبيب على معرفة بأمر زوجته؟!

أم هي الثقة المفرطة بزوجته، فقد حدثته مرة، إنها تمثل عليه دور المحبة، المتفانية في حبه، وتشعره أنه الوحيد الذي في قلبها، لهذا يطمئن لها، ويعمل على إرضائها.

إذن سيراها اليوم، ويبثها لواعج قلبه المتلهف لرؤيتها، ويقضي معها أجمل الأوقات ويريح قلبه المعذب.

******

وصل جابر عيادة الطبيب، فرأى عدداً من المرضى ينتظرون دورهم.

كانت نادية تجلس وتقرأ في الجريدة، إلى جوارها كان ابنها يلعب بنقالها، فما أن رآها حياها، ثم نظر إلى أخيه صدقي الذي بادره بالترحاب:

-أهلاً جابر

-كيف حالك؟

-الحمد لله

ثم وقف واستأذن بالدخول على الطبيب

-لقد جاء جابر
خرج الطبيب بعد أن استأذن من امرأة عجوز كان يعالج أضراسها
-أهلاً جابر
-الله يعطيك العافية
ثم نظر نحو المرضى الذين ينتظرون دورهم وقال:
-أرجو قبول اعتذاري
قال جابر موافقاً:
-الله يعطيك العافية
قال الطبيب:
-تستطيع الذهاب، وإذا رأيت مجالاً سألحق بكم
-إن شاء الله

******

جلست نادية إلى جواره، أما ابنها حسان فجلس في المقعد الخلفي، فكان لا يزال يلعب بالنقال.
قالت نادية:
-أين وصل العمل في البيت؟
-عندما نصل سترين.
كانت عيناها تفضيان إشراقاً، أما هو فقد كان يرنو إليها من خلال مرآة السيارة.
كان حريصاً أن يكون بمظهر الأدب والرصانة حتى لا يثير حفيظة ابنها الجالس في المقعد الخلفي.
وصلا المكان، كان العمال قد أتموا يومهم وانصرفوا إلى بيوتهم، ولم يكن في المكان سوى الحارس، الذي ما أن رأى سيارة جابر حتى هب واقفاً بادره جابر:
-السلام عليكم الله يعطيك العافية
-الله يعافيك
وقفت نادية وأخذت تنظر إلى البناء الذي بهرها، فقال جابر:
-غداً سيأتي عمال القصارة، كما ترين خطوط المياه في أماكنها جاهزة، وكذلك الكهرباء، وإن شاء الله خلال شهر ننتهي من أعمال القصارة وتركيب الأبواب وتمديد أسلاك الكهرباء
قالت نادية:
-يعني يأخذ العمل شهرين.؟
قال جابر:
-أرجو ذلك

أخذ ابنها يلعب بعربة كانت في الغرفة، يدفعها بشوق كبير ولما رأى جابر أن الجو ملائم ليبث لواعجه قال:
-كيف الحال؟
قالت بلهفة:
-كم كنت متلهفة لرؤيتك.
قال يداعبها: والآن
-الآن أكثر شوقاً
نظر في عينيها فغاب في عمقهما، اقترب برأسه أكثر حتى اقتربت شفتاه من شفتيها وكانا في جحيم من القبل، أحسا بنشوة عارمة ثم ابتعدت عنه كمن قد لسعتها أفعى فقال جابر:
-لم فعلت ذلك؟
قال بخوف:
-أخشى أن يرانا ابني حسان؟
قال مؤكداً:
-الحرص واجب
نادى جابر على الطفل، فجاء صوب الطفل
-يا عمو خليني ألعب بالعربة؟
-هيا غربت الشمس
أقبل الطفل متأففاً، فقال جابر:
-في المرة القادمة تعلب أكثر
ركبا السيارة فانطلقت بهم إلى العيادة.

******

ظل جابر يسير على جمر الحب، فعندما كان يخلو مع نفسه تبدأ نفسه اللوامة، فيشعر بأن تجرفه الشهوة العارمة، إلى ما لا يحمد عقباه، فما ذنب زوجته المخلصة الوفية، بل ما ذنبه هو؟ حيث يظلم نفسه ويحوم حول دائرة اللهيب، وفي آخر لقاء، كاد أن يدخل الدائرة ولكن كيف الخلاص؟؟!!!
صحيح أن نادية تبدي حقاً جنونها وتخون زوجها، وهو كذلك يخون زوجته الطاهرة النقية كالثلج.
هذا الشعور بالذنب والشعور بالندم ينتابه بعد كل لقاء. حيث ينفرد بنفسه، لكن هذا الندم يتلاشى كسحابة صيف حين يقابل نادية، أو تتحدث إليه، وكأنها تبعث نيران الحب فيتأجج، ويستمر بالمهزلة، كما سماها ذات يوم وهو يحدث نفسه اللوامة.

جابر والنجاح معاً، توسعت المشاريع التي كان عطاءاتها ترسو عليه، حتى قال له أحد المقاولين:
-يا رجل اترك لنا شيئاً ولو لحسة أصبع.
فيجيب ضاحكاً:
-أنتم تضعون أسعاراً عالية، ومواصفات لا ترضي أصحاب العطاءات
قال أبو نجيب المقاول المعروف الذي كانت العطاءات في السابق ترسو عليه:
-أم أنك تطعم المسؤولين؟!
هبّ جابر واقفاً غاضباً:
-أنتم تعرفونني، أني لا أسير إلا بالسليم، وأتحدى من كل من يزعم أنني أعمد إلى الرشوة، أعوذ بالله
قال أبو نجيب:
-هوّن عليك يا رجل، إنني أمزح معك
عاد جابر إلى الحديث:
-ثق إنني أرفض أن أسير في دروب ملتوية إنني واضح وصريح
قال أبو نجيب مهدئاً من روع جابر:
-اهدأ يا رجل هذه أرزاق بعثها الله لك، فإن الله إذا أعطى أدهش.
قال جابر مؤمناً على قوله:
-سبحانه فهو الكريم المعطي
-الله يرزقك من نعمه

******

عندما خرج أبو نجيب من مكتب جابر أحس أن أبا نجيب وشركاءه لن يتركوه، فيجب عليه أن يكون حريصاً لا يُقبل على أمر من أمور العطاءات إلا بعد تروٍ، وإمعان حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه.
فقد علمته التجارب في مضمار المقاولات أن هناك حيتاناً يعرفون من أين تؤكل الكتف، وإن من يعرقل أمورهم ويقف حاجزاً،ولايهدأون حتى يطيحوا به فيكون كفأرة الحقل لا تقوم له قائمة، وأبو نجيب من هذه الحيتان التي لا تقصر عن أي فعل في تدمير منافسهم في مجالهم.
إذن زيارة أبي نجيب وشركائه كانت عبارة عن تهديد له، وعليه أن يكون مفتح العينين حتى لا يقع في الشرك. ولكن يا جبل ما يهزك ريح.
الأيام تمر باسمة مشرقة، وجابر يقوم بما رسا عليه من مناقصات على أتم وجه.
نمت ثروته نمواً كبيراً، عدا الآليات من جرافات وهوكات، وكمبورصات، وقلابات، وسيارات الباطون الآلية، والبكبات وعربات نقل الحصمة وغيرها.

وكان يساعده عدد من المهندسين والمراقبين والمشرفين، ومعلمو البناء والقصارة والدهان والطراشة، وهذه الأشياء جعلته يسير في الطريق السليم الواضح.
دعا أبو نجيب شركاءه الثلاثة لاجتماع طارئ في بيته، في الشميساني، كان الأربعة يجلسون يتناولون الشاي، قال أبو نجيب مفتتحا الجلسة:
-أهلاً بكم
قال أبو محمود الدرعي:
-أهلاً بك يا كبير
قال أبو نجيب بحزن:
-الكبير... إذا ظلت الأمور كما ترون سيصبح صغيراً
قال أبو ناجي السوسي (شريك أبو نجيب):
-غيمة ستنقشع
رد عليه أبو نجيب:
-ستنقشع إذا عملنا الصح
قال سلمان القشة:
-كل شيء له نهاية... ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع
قال أبو نجيب مؤمناً على قوله:
-تذكرون كيف كان أبو سعيد التركماني، كان مثل صاحبنا حتى غدونا لا حيلة لنا ولا طاقة قطع رزقنا
قال أبو ناجي:
-إذن نعمل كما عملنا مع أبي سعيد
قال أبو نجيب:
-نِعم الخطة، حتى نخرج من هذه الورطة

******

كان أبو نجيب يعمد إلى دفع مبلغ كبير من المال، لأحد الموظفين الذين يقومون بعملية المناقصات في الوزارات ذات الشأن وكان يفتح مظاريف المناقصات ويصورها، ويذهب بها إلى أبي نجيب، أبونجيب يضع نفس المواصفات. ولكن عند وضع الأسعار يعمد إلى وضع مبلغ أقل مما وضعه الاخرون وعند النظر في المناقصات يرسو عليه العطاء.
قال سلمان القشة:
-أنا من سيقوم بمقابلة أبي ياسين واتفق معه
قال أبو نجيب موافقا:
-حسناً حسناً
قال أبو ناجي السوسي:

-وهكذا تعود المياه إلى مجاريها
وأكمل أبو نجيب القول:
-ونضع حداً لجابر وأمثاله
قال أبو محمد الدرعي:
-اسمعوا يا جماعة، عندي خطة أسلم من خطتكم وأضمن
فقال أبو نجيب:
-هاتها
أجاب الدرعي:
-أرى أن نزور السيد عفيف المسلم فهو الذي يقوم بكتابة مسودات مشاريع جابر، نغريه بالمال ليأتينا بمناقصات جابر
قال أبو نجيب وقد راقت له الفكرة:
-صحيح لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره ولكن من يقم بالاتصال به.
قال الدرعي:
-أنا فهناك صداقة قديمة بين زوجته وزوجتي، كانتا صديقتين أيام الدراسة
قال أبو نجيب:
-إذن عليك بالقيام أنت وزوجتك بترتيب زيارة عائلية لعفيف وزوجته.
قال الدرعي:
-بعد أيام قليلة تستمعون بأبناء طيبة بإذن الله
قال أبو نجيب:
-سنرى همتك
ثم رفع صوته منادياً على ولده:
-يا سامح هات القهوة
شربوا القهوة ثم استأذنوا بالرواح.
كان جابر في موقع العمل في شارع مكة في الزرقاء، أحس بالفخر وهو يرى العمل جارياً على قدم وساق.
اقترب منه أبو حسن معلم البناء قائلاً:
-حياك الله يا معلم جابر
-أهلاً بك الله يعطيك العافية
-سمعت أن الحديد اخذ بالارتفاع وقد وصل ثمن الطن إلى خمسمائة دينار وقال لي أحد العارفين أنه سيصل إلى الألف دينار.
-معقول!!؟
-خبر من مسؤول من مصنع الحديد
سرح جابر بخياله فقال:

-أرى أن نشتري كمية كبيرة من الحديد، بقدر ما تتسع المخازن، إذا ارتفع كسبنا وإذا بقي على حاله لا يضر.
قال أبو حسن:
-عين الصواب
-أين أبو حلمي سائق الشاحنة؟
قال أبو حسن:
-لا أدري، ولكن اتصل به في الحال.
قال جابر:
-أخبره أن يأتي بالحال إلى هنا
بعد فترة كان أبو حسن يهاتف أبا حلمي:
-أبو حلمي... مساء الخير
-المعلم جابر يريدك أن تأتي بالحال إلى ورشته في مكة
-لا تتأخر
قال جابر:
-عال العال... سأطلب منه الذهاب لمصنع الحديد وتحميل ألفي طن، لينزلها العمال في المستودعات
أقبل (أبو حلمي) بسيارته مسرعاً وهو يقول:
-السلام عليكم خير يا معلم جابر؟!
-أريدك غداً أن تذهب إلى مصنع الحديد وتدفع له ثمن ألفي طن، تتصل بالمصنع أولاً وتسأله عن ثمن ألفي طن حتى أحرر لك شيكاً بالمبلغ.
-أنت تأمر
عندما ذهب مسؤول المشتريات في شركة المقاولات المتحدة التي يرأسها أبو نجيب إلى مصنع الحديد وقدم نوتة فيها كميات الحديد المطلوبة والتي تقدر بألف طن، قال له مدير المصنع:
-لا نستطيع تلبية ما تريدون.
قال مندوب المشتريات:
-خير
-لقد سبقكم جابر إلى شراء ألفي طن وبعد شهر من هذا اليوم تستلمون ما تريدون.
أسقط في يد مسؤول المشتريات في الشركة المتحدة حينما سمع ما يقوله المدير فقال:
-أمهلني فترة من الوقت حتى أتصل بأبي نجيب
-لك ما تريد، نحن جاهزون

عندما سمع أبو نجيب ما يقوله مندوب المشتريات حتى صاح هائجاً:
-عملها الكلب... والله لن يفلت من العقاب
******
انتهى العمال من تنزيل الحديد في مستودعات جابر الواسعة، التي كانت في الطابق الأرضي من منزله.
أحس براحة كبيرة وهو يرى قضبان الحديد متراصة كل نوع على حدة حينما صعد إلى بيته في الطابق الثاني كانت زوجته باستقباله فبادرته بالكلام:
-أهلاً وسهلاً الله يعطيك العافية
-الله يعافيكِ، أريد أن أنام فقد قضيت يوماً مرهقاً
-الله يعينك ويقويك
ثم أردفت:
-الأكل جاهز
-آكل بعد أن أنام ولست جائعاً، كلي أنتِ ولما أنهض آكل أنا.
-وهل الأكل لذيذ بدونك؟
-توكلي على الله
تمدد جابر في سريره، في إعياء شديد لما بذله من جهد في العمل، ثم استسلم لجيش النوم.
بعد ساعة من الزمن، جاءت زوجته إلى غرفته لتوقظه، فوجدته نائم في سلام كطفل وديع.
فقالت تحدث نفسها:
-هنيئاً لك بنومك... سأوقظك بعد ساعة وخرجت من غرفته بخفة حتى لا توقظه.
******
في هدأة الليل وقبل آذان الفجر بساعة تقريباً، كانت ثلاث شاحنات تقف على مقربة من مستودعات جابر، نزل رجلان ملثمان للمستودع وقاما بنشر الأقفال وبسرعة كانت الأقفال قد خلعت، ولما حاولا رفع الباب انطلقت أصوات التحذير لتغتال صمت الليل، أسرع الرجال إلى الهرب، كانت زوجة جابر تضع طفلها الذي أفاق وهو يبكي، فلما سمعت صوت الإنذار حتى أسرعت إلى جابر... ذهبت توقظه بخوف ورهبة:
-جابر... جابر
هب جابر مذعوراً :
-ما الأمر؟
كان جهاز الإنذار لا زال صوته يبدد صمت الليل، حافياً خرج جابر إلى المستودعات، فوجد الأقفال مكسورة ورأى في البعيد ثلاث شاحنات تختفي في نهاية الشارع.

تأكد جابر من سلامة المستودعات، وشكر الله ولما صعد إلى البيت كانت زوجته تقف قلقة، خائفة فبادرته:

-ما الأمر؟

قال بغضب:

-لصوص يريدون سرقة الحديد، ولما انطلقت أصوات الإنذار لاذوا بالفرار

ثم سرعان من انتاب جابر القلق، وحدث نفسه لاذوا ولم ألحق بهم، ثم أدرك أنه خرج حافياً ومفاتيح سيارته ليست معه ثم إنهم هربوا بأقصى سرعة.

لم ينم جابر، بل بقي جالساً على مقعد في الشرفة يضرب أخماساً لأسداس، ثم قفز إلى ذهنه أبو نجيب:

-نعم إنه هو؟؟؟!!!

إذن بدأت الحرب، لذا يجب أن أكون يقظاً لأمنع أذاهم

******

وصل جابر فيلا الطبيب أسعد، كانت فيلا تجثم بكبرياء وجمال، يحيط بها سور واجهته من الحجر الأبيض النفيس بوابة حديدية باللون الأحمر لمبات الكهرباء تزين السور المطل على الشارع الرئيسي، أشجار الزيتون والرمان واللوز والليمون وشجيرات السرو والنخيل والأسكادنيا، وشجيرات الأزهار متعددة الألوان تزين مدخل الفيلا.

إضافة إلى نافورة مياه مُقامة على بركة ثمانية الشكل زادت الفيلا بهاءً ورواء.

فيلا، لا يمر أحد من جوارها إلا توقف قربها، فتأسره الروعة والجمال.

قال جابر لنفسه، كل شيء يهون من أجل نادية، فُلة تعيش في فيلا.

اتصل جابر بالدكتور طلال أسعد لتسليمه مفاتيح الفيلا:

-مرحبا

-أهلاً أخ جابر

-الساعة السادسة مساء، أريد أن أسلمك مفاتيح الفيلا

-وأخيراً

-نعم كل شيء على ما يرام

-إذن الساعة السادسة أكون في الفيلا

قبل الساعة السادسة كان الدكتور طلال وزوجته نادية ينزلان من السيارة، ويدفعون باب الفيلا الخارجي حيث كان جابر يسقي أحواض الأزهار الجميلة بخرطوم المياه، قال الدكتور محيياً جابر:

-مرحباً

-يا هلا

قال جابر:

-هذه فيلا تليق بطبيب مشهور، وزوجة فاضلة وابن جميل
قال الدكتور:
-إن لساني عاجز عن شكرك وأقبل عليه يعانقه
قال جابر وهو يربت على كتفه:
-ولا يهمك نحن إخوان
قال جابر:
-بقي الأثاث يا دكتور
هز الطبيب وقال بهمس:
-بقي الأثاث
قال جابر:
-الأثاث يجب أن يكون فاخراً يليق بالفيلا ويليق بساكنها
قالت نادية:
-أخشى أن تكون من برة عظام ومن جوه سخام
قال جابر:
-أنا أعرف محل مفروشات وهو يخصني بأسعار منافسة، نذهب إليه متى تشاؤون
قالت نادية بلهفة:
-غداً مساء
-حسناً
ناول جابر مفاتيح الفيلا، وكان قدمه وهو يبتسم:
-تفضل هذه المفاتيح الباب الخارجي، وباب الفيلا الرئيسي، أما بقية المفاتيح فهي في الأبواب ، ألف مبارك وإن شاء الله ترون على وجهها السعد
-إن شاء الله... بارك الله فيك
ودعهم جابر، بينما الطبيب وزوجته راحا يتجولون حول الفيلا والدهشة تعقد ألسنتهما. قالت نادية:
-هذا منزل العمر
قال الدكتور معترفاً لجميل جابر:
-يا له من إنسان طيب.
قالت نادية:
-من تقصد؟
قال:
-من غير جابر فلولاه ما كان لنا فيلا جميلة
******

خرج جابر من مكتبه في ساعة مبكرة، ورغم إن النهار كان في أوله، إلا أن الجو كان حاراً.
ركب سيارته وانطلق إلى حي مكة، ليرى أين وصل العمال في البناء والإعداد.
استقبل الحارس أبو سمير مرحباً:
قال جابر:
-الله يعطيك العافية
-أهلاً أستاذ جابر العمال جاؤوا منذ الساعة السابعة، وسمعتهم يقولون إن غداً تركيب الطوبار
ثم أردف في تردد وحياء:
-أستاذ جابر أريد منك خدمة؟
قال جابر:
-اعتبر ما تريد أمراً
قال أبو سمير بحياء زائد:
-استغفر الله
-وما هي الخدمة التي تريدها؟ تكلم؟!
قال أبو سمير:
-ابنتي سهير، حصلت على الشامل في قسم إدارة الأعمال وطرقت أبواباً كثيرة للعمل ولكن دون جدوى... وأريد منك أن تتوسط لي عند أحد معارفك أو أصدقائك حتى تساعدنا في العيش.
قال جابر:
-لتأتي إلى مكتبي غداً صباحاً... وإن شاء الله يصير خير
لم يستطع أبو سمير كتمان فرحه فقال:
-الله يخليك لنا سنداً
-توكل على الله يا رجل
ثم تركه وتوجه إلى مركز العمل، كان المهندس عبدالفتاح جالساً في ظل جدار في العمارة، وكان يرى منه حركة العمل، فاجأه جابر:
-الله يعطيك العافية
-أهلاً أخ جابر
-كيف يسير العمل؟
-كما تريد، فالعمال لا يدخرون جهداً في العمل. غداً نبدأ بتركيب الطوبار
-على بركة الله
سار جابر ومعه المهندس عبدالفتاح باتجاه العمال الذين يقومون ببناء القواطع في غرف العمارة، حياهم وبارك جهدهم.

قال معلم البناء:
-كيف ترى عملنا يا معلم؟
-ليس عليه كلام، الله يعطيك العافية
في صباح اليوم التالي، وبينما كان جابر يتصفح الجريدة، دخلت سهير بخجل وهي تقول:
-حضرتك السيد جابر؟!
-نعم أنا جابر، تفضلي ماذا تريدين؟
قالت والحياء قد صبغ وجنتيها بالحمرة .
-أنا بنت أبي سمير، جئت على طلبك.
-أهلاً وسهلاً، تفضلي اجلسي
جلست الفتاة وعيناها تحدق في أرض المكتب:
-ما اسمك؟
-سهير
قال جابر:
-اسمعي يا آنسة سهير، عرفت من أباك إنك حاصلة على شهادة الشامل في إدارة الأعمال ولهذا سأعهد إليك بأعمال إدارية مثل طباعة ما يلزمنا من رسائل ومناقصات وحسابات، إضافة إلى قراءة الجرائد اليومية.
قالت متسائلة:
-قراءة الجرائد؟
-نعم قراءة الإعلانات والمناقصات التي تنشرها الصحف وتقومي بقصها وتحتفظين بها في ملف خاص، لأطلع عليها.
قالت:
-وهل هناك مهمات أخرى؟
-طبعاً هناك أيضاً وضع جداول للمصاريف، ورواتب العاملين وكذلك رصد دوام العمال وغيابهم.

ثم أردف قائلاً:
-إذا جد جديد سأخبرك في الوقت المناسب
-إن شاء الله سأكون عند حسن ظنك
-إن شاء لله
ثم أردف قائلاً:
-راتبك سيكون مائة وخمسين دينار
قالت ولم تستطع إخفاء سعادتها:

-كما تريد
قال ليزيدها معرفة لما يجب عليها أن تقوم به
-في الغرفة الداخلية... هناك كمبيوتر وهناك أيضاً الملفات
توقف قليلاً ثم تابع حديثه:
-أريد منك أن تضبطي السجلات والملفات، وعلى فكرة فالأمور عندنا في فوضى، وأريد منك ضبط كل شيء، وكل شيء تحتاجين إليه ليسير العمل جيداً اكتبيه وسأحضره على الفور
-حسناً
ثم أردف قائلاً:
-أنا بعد العاشرة صباحاً أغادر المكتب لأتابع عمل العمال في المشاريع، فاستقبلي المراجعين، وإذا كان هناك أمر مهم فهاتفيني. سأترك لك نقالاً خاصاً بالعمل، تتصلين بي إن كان الأمر يحتاج إلى حضوري.

******

قال المقاول أبو نجيب لشريكه أبو محمود الدرعي وهما يتناولان الشاي في مكتب شركة المقاولات المتحدة:
-ها ماذا فعلت لنا مع عفيف المسلم؟
-لقد اتصلت به، وأخبرته أني أريد زيارته الساعة السابعة
-حسناً، سنرى شطارتك
قال أبو محمود بثقة كبيرة:
-سيكون لك ما تريد
-سنرى
عاد أبو محمود الدرعي إلى بيته ولما استقبلته زوجته قالت له:
-لماذا لم تقل لي، إنك اتفقت مع جارنا عفيف المسلم على زيارتهم؟!
-لقد نسيت، ولكن مَن أخبرك بذلك؟!
قالت:
-اتصلت بي زوجة عفيف ورحبت بالزيارة.
أعدت الطعام لزوجها، الذي أقبل على الطعام بنهم شديد قال لها وهو يبتلع اللقمة:
-استعجلي وألبسي ثيابك فإن الوقت يمر بسرعة
عفيف المسلم كان يجلس في الشرفة ساهماً مفكراً في الزيارة المفاجأة للدرعي. لابد أن وراء الزيارة ما وراءها. فهو يعرف أنني أعمل عند جابر، وأعرف أنا إن أبا نجيب ومن معه من أشد المنافسين لجابر، إذن هناك سر يكمن في هذه الزيارة لكن عليّ أن أكون حذراً.

رحب عفيف المسلم بجاره أبي محمود وزوجته السيدة بهيرة:
-أهلاً وسهلاً
-أهلاً بك
نادى عفيف على زوجته:
-يا أم عدنان استقبلي ضيفتك، وأشار على السيدة بهيرة تفضلي
رحبت زوجة عفيف الضيفة:
-أهلاً وسهلاً زارنا السعد
-مساء الخير
دار الحديث بين المرأتين في أمور شتى.
قال عفيف مخاطباً محمود الدرعي:
-أهلاً وسهلاً حلت علينا البركة
-الله يبارك فيك
قال الدرعي:
-بلا مقدمات ولا مجاملات
ثم توقف في الحديث، فأحس عفيف أن ما خمنه في أمر الزيارة هو لأمر خطير، لكنه تابع لاستدراج الرجل بالحديث، ليكشف أوراقه فقال يخاطبه:
-أكمل حديثك
-يا سيدي قلت لك أريد أن أتحدث معك بلا مقدمات مملة، فأنا رجل واضح، لا لف عندي ولا دوران
-الصراحة خير طريق للوصول إلى ما نريد
-أكيد، ولهذا جئتك طالباً منك مساعدتي ، إن كنت أقدر فلك ما تريد
-أنت تعرف أن معلمك جابر يحاصرنا في المناقصات
قال عفيف:
-المعلم جابر يضع أسعاره بعد دراسة مستفيقة، ويحاول أن تكون أرباحه معقولة، لماذا لا تضعون أرباحكم بشكل معقول؟
قال الدرعي بحدة:
-أنا متأكد أن له رجالاً في الوزارة يطلعونه على أسرار المناقصات المقدمة
فقال عفيف بثقة:
-إن جابر لا يعرف الطرق الملتوية، على فكرة إن جابر طلب منا أن نؤخر تقديم المناقصات لآخر يوم.
-يا سيدي لو سلمنا جدلاً بما تقول، إذن لماذا ترسو عليه العطاءات؟
يتدخل عفيف قائلاً:
-كثير من العطاءات لا ترسو علينا

قال الدرعي:
-وما يرسوا بعضها علينا
قال عفيف:
-الطمع في الربح ضر وما نفع، كونوا واقعيين في تقديراتكم تتغير الأمور
-اسمع سأقول لك بصراحة نريد منك أن تتعاون معنا
-كيف أتعامل معكم وأنا أعمل مع جابر؟
-يا أخي أعرف هذا، نريد منك فقط أن تطلعنا عل المناقصات التي يبرمها ويتقدم بها، ونحن نعلم أن من يقوم بوضع الدراسات أنت، أنت وحدك وإن جابر يثق بك ثقة كبيرة
-الحمد لله على ذلك
-ماذا تقول؟
-يعني تريدون مني أن أبيع ذمتي مقابل مبلغ تافه
-ليس مبلغاً تافهاً... كل معاملة تأخذ عليها ألف دينار أهلك بحاجة لها وتحسن وضعك، وتؤمن مستقبلك.
-بالحرام؟!!!
-يا رجل لا تكن حنبلياً إنها فرصة العمر، وإذا هبت رياحك فاغتنمها.
هزّ عفيف رأسه فهب واقفاً كمن لسعته عقرب وصاح بالرجل:
-اسمع، والله لو دفعتم لي ثقلي ذهباً فلن أبيع معلمي، لست من الذين يرمون الحجارة في البئر التي يشرب منه
قال الدرعي محذراً:
-والله لتندم
-سأظل نادماً طيلة حياتي لو قبلت بعرضكم
في تلك اللحظة نادى الدرعي زوجته:
-يا أم محمود هيا
قال عفيف ليهدئ روعه:
-اجلس لنشرب القهوة
صاح الرجل بغضب:
-علي الطلاق لن أشرب قهوتك، كيف أشربها وأنت ترفض طلبي؟
خرج الدرعي ينتظر زوجته .
هاتف جابر الدكتور طلال يطلب منه المجيء مع زوجته نادية للذهاب إلى معرض الأثاث. قال الدكتور ملبياً:
-نحن جاهزون وسنكون عندك مسافة الطريق

بعد عشرة دقائق كان الدكتور قد أوقف سيارته أمام المكتب، نزلت نادية من المقعد الأمامي لتجلس في المقعد الخلفي، فحياهما جابر.
قال جابر للدكتور:
-امشي باتجاه وادي الحجر، ففي نهايته معرض أثاث النخبة.
انطلقت السيارة بسرعة فقال له جابر:
-على اليمين من فضلك
دخل الثلاثة المعرض، فلما رآهما صاحب المعرض هب واقفاً مرحباً:
-أهلاً وسهلاً
قال جابر:
-أهلاً بك نريد تأثيث منزل، ونريد منك أن تطلعنا على الفاخر الجيد
-أكيد
-المعرض وصاحبه تحت أمرك
قال جابر:
-نريد غرفة نوم، وطقم سفرة، كنبايات، سرير للطفل، خزانة للطفل، وكوميدنا
في تلك الأثناء كانت نادية تتفحص الأثاث المعروض ثم اقبلت على زوجها وجابر وصاحب المعرض قائلة:
-رأي اثنين خير من رأي واحد
قال جابر:
-أنتِ سيدة البيت فاختاري ما تريدينه مناسباً وما يعجبك
-ولكن أحب أن تشاركوني في الاختيار
قال جابر:
-هيا يا دكتور
تم اختيار الأثاث، وكتب صاحب المعرض فاتورة وكان مجموعها حوالي سبعة آلاف وخمسمائة دينار.
قال جابر لصاحب المعرض:
-الفاتورة عندي
قال صاحب المعرض
-كما تريد
ثم استدرك قائلاً:
-غداً في العاشرة صباحاً يكون الأثاث كله في البيت
قال جابر:
-أرجو أن توصي العمال بالحذر وأن يركبوا الخزائن وغرفة النوم بحذر أيضاً
قال صاحب المعرض:

-من دون توصية، سيكون راضياً
قال الطبيب يخاطب جابر بخجل واضح:
-أضفتهم إلى الحساب؟
قال جابر:
-صاحب المعرض بنيت له فيلا في الزرقاء الجديدة، دفع مبلغاً من المال والباقي يدفعه وفق كمبيالات... المبلغ أخصمه من الكمبيالات المتبقية عليه.
قالت نادية متدخلة:
-غداً أنزل إلى سوق الذهب وأبيع قسماً من مصاغي لدفع المبلغ
قال جابر بهدوء:
-لا تفعلي ذلك، يقوم الدكتور بدفع المبلغ بالتقسيط المريح
قال الدكتور ضاحكاً:
-إن كان دين خذ رطلين، الله يقدرنا على معروفك ويقدرنا على السداد،
ضحك الجميع وغادروا المعرض.

******

عندما رجع جابر إلى المكتب، كانت سهير منهمكة في طباعة الأوراق التي طلب منها جابر طباعتها، قال لها:
-كيف العمل؟
-على ما يرام
وناولته بعض الأوراق وتابعت الحديث:
-انظر... وأعطني رأيك لأقوم بالتعديل إذا لزم الأمر
راجع جابر الأوراق فوجد بعض الأوراق غير صحيحة في بعض الخانات. فقال وهو يُريها موقع الخطأ
-انظري ... الأرقام غير موجودة في الخانة الثالثة
نظرت حيث أشار فقالت:
-يا الله ما أغباني... الآن انتبهت
وقد اعتراها الحياء، فبدت كوردة تتفتح فقال لها:
-انتبهي... عملنا يحتاج إلى دقة
قالت وهو ينظر إليها بترقب:
-سأضيف الأرقام
لأول مرة التقت عيناهما، حدّق في عينيها الخضراوين لعله يدخل إلى أعماقها، ولكنه تصنع الوقار وقال:
-أنهي عملك لأننا سنغلق المكتب بعد قليل

******

عفيف المسلم، لم يرد أن يطلع جابراً على ما دار بينه وبين أبو محمود الدرعي، وحدثته نفسه إن فعل، سيجعل طيور الشك تعيش في قلب جابر، يكفيه أنه رفض أن يخون جابر، ولن ينسَ أيادي فضله الكثيرة.

ولا يزال موقف جابر منه حينما مات أبوه، يقف إلى جانبه، بل إنه قام بصنع طعام الميت في اليوم الأول، بل إنه كان شهماً حينما مرض ابنه البكر، فقام بمواساته ودفع تكاليف العلاج عن طيب خاطر، بل كان معه كريماً وسخياً، يرسل إليه من إنتاج مزرعته زيتوناً وكمثرى، وعنباً وغير ذلك.

يكفيه أنني سأظل صادقاً معه أميناً على مصالحه، ويكفيني أن يكون رزقي حلالاً طيباً، يباركه الله وتذكر ما قاله ذات يوم أبوه عليه الرحمة: "قيل يا رسول الله الحلال يذهب قال نعم والحرام يذهب ويذهب معه صاحبه إلى النار".

شعر بالسعادة والراحة لما آل إليه وغمره شعور بالفخر والاعتزاز وهو يردد الحمد لله.

كانت سهير في المكتب، وقد تألقت كعروس، خلعت منديلها وأسرحت شعرها لينسدل على كتفيها تقرأ في جريدة اليوم، وكم كان سرورها حينما وقفت عيناها على إعلانات وزارة الأشغال لإنشاء مجمعين تجاريين في عمان.

ولما دخل جابر المكتب وسأل عن أبي مسعود موظف المكتب فأخبرته سهير:

-لقد ذهب لشراء فطور له

ثم أردفت متسائلة وهي تناوله الجريدة:

-وزارة الأشغال نشرت إعلاناً لإقامة مجمعين للدوائر الحكومية في عمان

أخذ الجريدة ثم جلس وراء مكتبة وأخذ يقرأ الإعلان و بعد انتهائه من القراءة قال لها:

-عندما يجيء السيد عفيف المسلم أخبريه إن لم أكن هنا أن يقوم بدراسة العرض جيداً

-إن شاء الله

قال جابر:

-إن شاء الله العمل مريح

قالت والبسمة تضيء وجهها:

-عال العال، فمن يعمل معك يشعر براحة وطمأنينة كبيرتين

حدق في عينيها الخضراوين الساحرتين فاعتراها الحياء فقال بجرأة:

-أتعرفين أنك جميلة، بل رائعة الجمال

قالت بصوت لا يكاد يسمع:

-شكراً لهذا الإطراء

قال:

-صدقيني إنك جميلة، وصوتك عذب
قالت:
-لا تجعلني أصدق نفسي
قال مؤكداً:
-بل صدقي
في تلك اللحظة دخل أبو مسعود المكتب وحيا جابر والآنسة سهير.
قال جابر مخاطباً سهير:
-انتبهي وأنت تقومين بطباعة الأوراق لا أريد أية أخطاء ولا أريد إضاعة الوقت سدى
-حاضر
أبو مسعود رجل تعدى الستين، قبل عام أجرى عملية قلب مفتوح في المدينة الطبية، ضعيف الجسد وافق جابر على تشغيله في المكتب ليساعده من بؤسه، ومرضه يقوم بفتح المكتب صباحاً، ينظف المكتب، ولظروفه الصحية أرخى له جابر العنان، يأتي متى يشاء ويغيب متى شاء. لكنه كان يواظب على المجيء إلا إذا انتابه التعب، وأقعده عن الحركة، فيبقى في منزله للراحة
وأخذ الدواء.

******

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم بينما كان الدكتور طلال مستريحاً في عيادته، اتصل بجابر:
-أهلاً دكتور
-أهلا بك
قال الدكتور وهو يعلن عن فرحه بضحكة كبيرة تعبر عن مدى سعادته:
-اسمع يا أخي، اليوم مساء أنت مدعو لبيتنا، احتفالاً بانتقالنا إليه، نتناول طعام العشاء معاً اعترافاً بفرحنا واعترافاً بوقوفك إلى جانبنا
-سأرى
احتد صوت الدكتور وقال:
-لن نقبل أي عذر!!
-لكن!!
-لا لكن ولا غيره ننتظرك مساء
كانت المائدة ملأى بالأطعمة الفاخرة رز ولحم، محشي كوسا ورق دوالي، دجاج مشوي.
قال الدكتور مخاطباً جابر:
-أهلاً وسهلاً... تفضل

-لا تخجل ...
كانت نادية مقبلة تحمل شاف ماء وتضع كاسات فتابع زوجها الحديث:
-وأنتِ اجلسي وتناولي طعامك معنا
قال جابر مخاطباً الدكتور:
-أهنئك يا دكتور، فإن زوجتك طاهية ماهرة
شعرت نادية بالزهو وهي تسمع كلمات الإطراء فقال الدكتور ضاحكاً:
-الحمد لله... فيه العافية... وتابع ثلاثتهم الأكل
قال جابر:
-سفرة دايمة
-كل يا رجل، لا يزال كثير باقياً
-كثر الله عليكم الخير
رست المناقصة التي نشرتها الصحف على شركة أبي نجيب وشركائه، مما أثلج صدر أبي نجيب وشركائه، واحتفل الشركاء بهذه المناسبة، ليس لأن الاختيار وقع على شركتهم بل لأن جابر أبعد عنها، قال أبو نجيب بزهو وخيلاء:
-واخيراً انتصرنا، وفزنا، أكيد أن جابر الآن في حالة لا يحسد عليها
قال أبو محمود:
-الآن جابر يعض أصابع الندم
رد عليه أبو نجيب وقد علا ضحكه:
-منذ الآن سنعرف كيف نداويه حتى يتعلم كيف تكون منافسة الرجال، تفضلوا أيها السادة اشربوا نخب هذه المناسبة السعيدة
أقبل الجميع يشربون الخمر وهم يأكلون الفستق والكاشو والبندق حتى دارت الكؤوس بالرؤوس، قال أبو نجيب:
-اشربوا حتى يسكر الليل
ضحك الشركاء وعلا ضحكهم، وبقوا على هذه الحال المزري حتى ساعة متأخرة من الليل.

******

قال عفيف عندما التقى جابر بأسى:
-لقد رست المناقصة على شركة أبي نجيب
قال جابر بلا اكتراث وهو يرتب بعض الأوراق التي كانت أمامه:
-خيرها بغيرها
ثم أردف ليظهر عدم اكتراثه :
-إن عندنا عمل كثير
قال عفيف:

-أخشى أن يكون أبو نجيب وشركاؤه قد لعبوا لعبتهم
-لعبوا لعبتهم أم لم يلعبوا لا يهمني، فأنا على يقين بأن الأرزاق من الله
قال عفيف مؤمناً على قول جابر:
-سبحان الله
أردف جابر قائلاً:
-عندنا عمل كثير نريد الهمة في إنجازه حتى نبيض وجوهنا أمام العملاء
قال عفيف موافقاً:
-إن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام في الوقت المعني
ثم استأذن عفيف من جابر قائلاً:
-استأذنك بالمغادرة إلى البيت
-السلام عليكم
كانت سهير تجلس في غرفة الكمبيوتر، تطبع وتقص الأوراق، وعندما رأت جابر يقف وهو يقول:
-ألم تنتهي بعد من الطباعة
قالت:
-لم يبق سوى الصفحة الأخيرة من التقرير
قال جابر:
-اطبعيه والله يعطيك العافية
كانت تتحدث معه بينما كانت أصابعها الرقيقة تداعب الحروف بسرعة مدهشة فقال جابر مبدياً إعجابه بسرعتها في الطباعة فقال:
-ما شاء الله، إنك بارعة في الطباعة، ثم أضاف
-وبارعة الجمال
-شكراً
مد يده برفق واخذ يعبث بشعرها المنسدل الذي كان يتموج من هواء المروحة المنتصبة على مقربة منها، قال جابر:
-آسف
قالت بحياء:
-لا عليك
قال جابر هامساً:
-إن فيكِ سحر لا يقاوم، عيناكِ، وجهك، شعرك
ذابت حياء، وهو يتحدث فاكتسى وجهها بحمرة خفيفة، فزاد جمالها تألقا، فقالت بهمس:
-ما أعذب حديثك!

قال بهيام، بينما كانت أنفاسه تنبعث حارة تلفح وجهها:
-ما أجملك
ثم أردف:
-هل قال لك أحد إنك رائعة الجمال
قالت باعتداد:
-كثيرون ولكنني لم أسمعها بعذوبة إلا منك
قال وقد زاد وجيب قلبه:
-آه... كما أحبك
-حقاً
-أسألي قلبك يجيبك
دنا منها وأمسك بخصلة من شعرها كانت تغطي عينها اليسرى فقبلها وهو يهمس بحرارة:
-آه ما أروعك!!
قامت عن مقعدها وانتصبت تحدق فيه، لم يستطع مقاومة تألقها، فضمها إلى صدره وأخذ يقبلها بحرارة، فقبل شعرها وعينيها الخضراوين المغمضتين ثم تلاقت شفافهما أربع في قبلة طويلة ثم قال لها:
-آسف إن أزعجتك
قالت:
-لا تأسف فقد كنت سعيدة وكأنني في حلم
******

بعد أن غادرت سهير المكتب بقي جابر ساهماً شارداً، تزاحمت الأفكار في رأسه، شعر بالندم لما أقدم عليه، لماذا أفعل ذلك، فعندي امرأة رائعة الجمال، وديعة، لطيفة، تعمل بكل ما بوسعها لإرضائي، آه من نفسي الخوانة، آه من تصرفي الأحمق لماذا أكون ضعيفاً أمام النساء، وخاصة الجميلات، وسهير التي تحاصرني بجمالها وأنوثتها الصاخبة وعنفوانها، وتألقها ثم نادية الجميلة الساحرة....
فكلما حاولت أن أفلت من أسرهما، وأقرر وضع حد لما أنا فيه، أراني ضعيف، لا أستطيع مقاومة حبهما... أأكون مريضاً نفسياً؟! حتى أضرب بعرض الحائط القيم والفضيلة. الناس يحترمونني، ويثقون بي، فكيف لو عرفوا حقيقتي؟!
يجب علي أن أنهي عبثي، فما ذنب زوجتي وأحس بارتياح يغمره، وكأن كابوساً ثقيلاً انزاح عن نفسه.
لم يشعر أن الوقت سرقه، إلا عندما انطلقت الموسيقى من جواله، أفاق من ذهوله، ونظر إلى شاشة الموبايل فكانت زوجته على الطرف الآخر فتح نقاله:
-مساء الخير

كان صوت زوجته ينبئ عن قلقها:
-أين أنت يا رجل؟!
-في المكتب
-الساعة الواحدة ليلاً الآن، لقد قلقت عليك معلون أبو العمل
-مشوار الطريق وأكون في البيت
-بالسلامة
عندما دخل جابر البيت، وقف مذهولاً حينما رأى أضواء الزينة في غرفة الاستقبال فقال مشدوهاً:
-ما هذا؟
أقبلت زوجته والبسمة تشرق في وجهها وهي تلبس بدلة العرس:
-أنسيت؟
وقف واجماً صامتاً كصمت أبي الهول وهو يتمتم:
-نعم نسيت، عيد ميلاد كمال
-لا لا ... إنه يوم زواجنا
فاستدرك قائلاً متصنعاً:
-عقبال مائة عام
قالت:
-قلت أنه من المستحيل أن ينسى هذا اليوم، الذي لم شملنا
قال موافقاً:
-يا قمري ويا حبي الجميل الخالد
قال وهو يحدق في عينيها العسليتين كأنه يراها لأول مرة
-ملعون أبو الشغل، لقد سرق منا جمال الأيام، وزهو الذكريات الجميلة
قالت:
-هذه هي الحياة، تعب ومشقة وراحة وهنا
قال:
-اعتذر منك، فقد كنت أريد أن أحضر لك هدية بهذه المناسبة ولكن الشغل – ملعون أبو الشغل-
رفعت يدها ووضعتها برفق على فمه وهي تقول:
-أنتِ أجمل هدية وأغلى هدية أعطاني اياها الله
قال وقد أحس بذنبه نحوها:
-أنتِ الأغلى يا حياتي
كانت ليلة من ليالي العمر، تألقت فيه زوجته بجمالها الهادئ وبحركاتها اللطيفة، أما جابر فكانت الغبطة قد ملأت نفسه فقال:

-كما أنا غبي
قالت محتجة:
-لا تقل ذلك، إنك أذكى الرجال
تابع يقول:
-أرجو أن تسامحيني، فقد سرقني العمل، وأبعدني عنك
-لا تقل ذلك، فأنت تشقى وتتعب من أجل من؟!
-يا أروع امرأة، أرجو أن تصفحي عني
-قلت لك دعك من هذ الكلام
-قولي سامحتك
قالت بمودة:
-أنت حياتي
قال بصدق:
-وأنتِ نور وجودي
كانت ليلة رائعة عاشها جابر، وقد أحس أن أوزاره قد زالت، فنام هادئاً هانياً.

******

في مساء اليوم التالي كان جابر في موقع العمل في ضاحية مكة، يشرف على التشطيبات النهائية في عمارة، اتصلت به نادية:
-أهلاً نادية
-مساء الخير
-مساء النور
-كيف حال الدكتور
-الدكتور بخير، فهو في العيادة، غارق في الشغل، لماذا لا تسال عن حالي؟
قال مستفسراً:
-وكيف حالك؟
لم تجب بل إنه يسمع بكاءها، فقال:
-لماذا تبكين؟
-كأنك لا تعرف!!
قال:
-والله لا أعرف.... ماذا حصل؟
-لك أكثر من شهر... لا تتصل ولا تسأل
قال في نفسه: عليّ أن أداريها، واتعلل بالأعذار فقال:
-وكيف أنسى زهرة الحب الصافي؟!
قالت وهي تتوسل:

-أرجوك أريد أن أراك، فإني في شوق لرؤيتك يا قاسي
ضحك وقال:
-امهليني يومين فقط
قالت بدلال وهي تغني أغنية معروفة:
-والله اشتقنالك... اشتقنا لعيونك
قال جابر محدثاً نفسه:
-يجب عليّ أن أكون حريصاً في معاملتها
وعليّ أن انسحب من حياتها، أو إخراجها من حياتي بلا جلبة أو ضوضاء
يجب أن أخرج من دائرة اللهيب، من دائرة الشهوة الآثمة
-وسهير سأعمد ألا أكون في المكتب إلا بحضور أحد، حتى أتجنب الانفراد معها، لأن الانفراد هو الذي يجعل المجال مفتوحاً

******

حديث الناس حول حديد البناء الذي ارتفع من أربعمائة وخمسين دينار للطن إلى ستمائة وخمسين دينار، وكان أكثر المتضررين من لم يتمكنوا من شرائه في السعر الأول والأكثر تضرراً أصحاب المقاولات الكبيرة.
قال أبو نجيب وقد وضع ذقنه على راحة يده لتحمل ما في رأسه من أفكار أثقلته:
-الحديد ارتفع مائتا دينار للطن هذه كارثة
قال شريكه سليمان القشة:
-قال لي جمال حفيظة المعروف في مصنع الحديد، أنه سيرتفع ويرتفع حتى يصل الألف دينار
صاح أبو نجيب:
-هذا خازوق مبرشم
أسقط في يد الشركاء الثلاثة، وانقلب السحر على الساحر قال أبو نجيب:
-والعمل
قال أبو محمود الدرعي وهو الرأس المدبر والمفكر في الشركة:
-أرى أن نعمد إلى تقليل كمية الحديد كما فعلنا في مشروع الرابية
قال أبو نجيب:
-ولكن كونوا حريصين
قال سليمان القشة:
-وهكذا نقلل مخاسرنا
قال الدرعي :
-بل ونربح

كان أبو نجيب وشركاؤه، بعد أن ينهي عمال الطوبار من وضع الحديد في السقوف، وكما هي المواصفات حيث العدد والسمك، تكون جاهزة لصبة الباطون، فيرى المهندس المشرف لصاحب المشروع الذي يقوم بالتأكد من وضع الحديد حسب المواصفات السليمة للبناء حسب المخططات، فيأخذون منه الموافقة، ويغادر المكان، وحتى يبعدون الشك عنهم يغادرون الموقع معهم.
ثم يعودون تحت جنح الليل بسحب ما يريدون من قضبان الحديد المثبتة، بعد قطع أسلاك الشد والربط، ومقدار ما يسحبون من القضبان بثلث الكمية، وفي الصباح تكون خراطيم الصبة الجاهزة تفرش السقوف، حيث يكون عمال الباطون يوزعون الباطون على الأسطح بهمة ونشاط.
قال أبو نجيب مبدياً ارتياحه مما تم فعله:
-هكذا نضمن عدم الخسارة
لم يتأثر جابر بارتفاع الحديد لأنه حسب حساباته جيداً، فاشترى كميات كبيرة، ألف طن كمية تكفيه لعدة مشاريع مهما ارتفع الحديد أو انخفض في الأمان أو كما يحلو له أن يقول أنا في السليم.
ازدادت المشاريع التي عُرضت عليه وقبلها حتى توسعت اتساعاً كبيراً، وبخاصة حينما رسا عليه بناء إسكان المدينة للاستثمار والعمران.
كان مشروعاً ضخماً ست عمارات، كل عمارة من خمسة طوابق، لم يعط جابر الموافقة على هذا المشروع الذي يكلف الملايين من الدنانير، يجب أن يقوم بوضع دراسة تبين الجدوى الاقتصادية.
مجموعة من موظفيه من ذوي العلاقة (المهندسون، والمحاسبون، المشتريات) وكان جابر يجلس بينهم وهو يقرأ عليهم المواصفات.
قال جابر:
-ست عمارات كل عمارة خمسة طوابق وكل طابق يتألف من شقتين، مساحة الشقة مائة وخمسون متراً مربعاً، ارتفاع الطابق ثلاثة أمتار
ثم نظر إلى معلم البناء وقال:
-سجلت ما قلت
قال معلم البناء أبو يحيى العمواسي:
-كله مسجل
-عال العال
-احسب ما يلزم من حديد، واحسب الطوب، وكذلك الحصمة، والمسامير والأسلاك، ولا تنسى شيئاً
ثم رفع رأسه وقال:

-الأساسات كن حذراً وأنت تحسب حساب القواعد خمسة طوابق ليست أمر بسيط
بعد يومين من العمل الشاق في التدقيق، أصبحت الأمور واضحة امام جابر، وسمى هذا المشروع مشروع العمر.

******

أبو نجيب يجلس في مكتبه وإلى جانبه الأرجيلة، يسحب نفساً فتقرقر ثم ينفث الدخان، فيملأ جو غرفة المكتب بالدخان وهو يلف حبل الأرجيلة حول عنقها:
-لقد رسا مشروع إسكان المدينة للاستثمار على جابر طعم وابتلعه
قال الدرعي:
-أي طعم يا أبا نجيب؟!
هز أبو نجيب رأسه طرباً وقال:
-على نفسها جنت براقش، لأن هذا مشروع ضخم، يحتاج إلى الآلاف الدنانير، وصاحب المشروع وضع شروطاً تعجيزية، سواء كان في المواصفات، أو في فترة الإنجاز إنه يضع المقاولين في موقع التحدي، هذا المشروع هو قاصمة الظهر لجابر
قال سلمان القشة موافقاً:
-يا أخي، إذا كان الواحد قدرته على حمل مائة كيلو ماذا لو حمل مائتين وخمسين؟!
قال أبو نجيب:
-تطحنه
-وهذا ما سيؤول إليه المسكين
قال أبو نجيب:
-لهذا كنت فرحاً حين رسا المشروع على جابر حتى نرى من يضحك في النهاية
جابر في مكتبه يجلس إلى جواره المهندس عبدالفتاح وأمامه مخططات مشروع المدينة، قال جابر:
-خمس عمارات، كل عمارة خمسة طوابق، والطابق يتكون من شقتين، وكلما أنجزنا طابقاً وانتقلنا إلى الطابق الثاني يقوم النجارون بوضع حلوق الأبواب، كما يقوم الكهربائيون بتمديد المواسير التي تمر بها أسلاك الكهرباء، ويقوم عمال الألمنيوم بعملهم وعندما ينتهون، يقوم عمال القصارة بالعمل وهكذا، لا نكاد ننتهي من الطابق الخامس إلا والطوابق الأربعة تنتظر تركيب الأبواب والشبابيك، ويتم تمديد تمديدات المياه كل ما يلزم في الحمامات والمطابخ، وتركيب خزائن المطابخ وما يلزم الحمامات وتمديدات الكهرباء، ولا يبقى إلا الطراشة والدهان.
قال المهندس عبدالفتاح:
-هذا أفضل تخطيط لاكتساب الوقت
قال جابر برزانة:

-ولكن نريد همتك، وحث العمال على سرعة الإنجاز مع مراعاة المواصفات المطلوبة
-إن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام
كان اهتمام جابر باتجاه المشروع الكبير، اهتماماً كبيراً، وأي تهاون يكلفه الكثير، فكان حريصاً على متابعة العمل، رغم تفاني المهندس عبدالفتاح والعمال.
إضافة إلى رغبة عمال البناء والطوبار في العمل الدؤوب حيث أنهم كانوا يعملون ساعات إضافية، لهذا كان العمل يسير بشكل ممتاز حتى تم إنجاز خمس عمارات في وقت خيالي.
قال المهندس عبدالفتاح بثقة واعتزاز:
-طالما أن المواد جاهزة، والآلات موجودة والعمال يقومون بواجبهم فإن الأمور تسير سيراً جيداً
قال جابر مؤكداً ما قاله المهندس عبدالفتاح:
-هذا صحيح، فإنه ما يربك العمل، نقص المواد وعدم وجود الآلات وكذلك توفر أجور العمال، لأن العامل إذا لم يأخذ أجره أو تأخر ينعكس على العمل
عمارتان جاهزتان أو كما يقول المقاولون "تسليم مفتاح" وتم تسليمهما لأصحاب المشروع الذين لم يجدوا ما يثير حفيظتهم، مما جعل صاحب المشروع يقول لجابر وهو يشد على يد جابر:
-والله أنك كفيت ووفيت
قال جابر بثقة:
-شعارنا الصدق والأمانة، وكل ما نرجوه رضاء عميلنا
قال صاحب المشروع الحاج عبدالرحيم:
-إن شاء الله العمارات الباقية تكون مثل هاتين العمارتين
-توكل على الله... فإن الله يحب إذا عمل أحد عملاً أن يتقنه
-على بركة الله
جابر في بيته، كان يداعب طفله كمال، والطفل يملأ البيت بشراً وسروراً، ويملأ قلب أبيه بالسعادة، قال زوجته ليلى:
-من زمان لم تجلس وتداعب كمال
فأضاف جابر:
-ولم أجلس مع سيدتي الجميلة
قالت ليلى:
-السيدة الجميلة تقدر حال زوجها وهي ترأف بزوجها لكثرة أعماله، وتخاف عليه من الإرهاق.
قال جابر:
-الحمد لله الذي أعطاني إياك، ولكنني أعرف أني اظلمك

قالت بتودد:
-توكل على الله
قال جابر:
-لا... يجب عليّ أن أجعل يوماً لقضائه معكم... فإني أحس أنني احيا في الجنة
قالت مؤكدة:
-تفعل خيرا.... فإن لجسدك عليك حقاً.
وأكمل جابر:
-ولأهلك عليك حقاً

******

قبل الموعد المحدد بشهر ونصف تقريباً، تم إنجاز المشروع كاملاً، في ضاحية من أجمل ضواحي عمان حيث أكثر الشقق التي أقيمت في البداية تقطنها عائلات ميسورة الحال.
الحدائق الجميلة، مزروعة بأشجار الزينة والورود، كان جابر مع صاحب المشروع الحاج عبدالرحيم الخطيب وشركاه واقفين يغمرهم سرور باد يطفح من وجوههم.
قال جابر والابتسامة تشع من وجهه:
-هكذا نكون قد أنهينا ما علينا
قال عبدالرحيم الخطيب:
-وبقي ما علينا وناول جابر شيكاً بالمبلغ المتبقي والمتفق عليه
قال جابر:
-أسأل الله أن يوفقكم بهذا المشروع الضخم
تنفس جابر الصعداء، عندما سلم مفاتيح العمارات لصاحب الشركة الاستثمارية، وأحس براحة كبيرة تغمره، لهذا الإنجاز الذي لولا إخلاص الموظفين لديه لما تم، لهذا قرر أن يكافئهم لما بذلوه من تفان في العمل.
لقد كانت فرحة العمال والمهندسين كبيرة، قال المهندس عبدالفتاح بارتياح:
-لقد غمرتنا بكرمك يا أخ جابر
قال جابر:
-إنكم تستحقون أكثر من هذا، الله يعطيكم العافية فإنكم لم تقصروا
عندما سمع أبو نجيب بما حققه جابر، غلت مراحل الحسد في قلبه وفي قلوب شركائه
قال أبو نجيب بتأفف:
-اكيد أنه استطاع بدهائه أن يلعب بالمواصفات
قال شريكه الدرعي:

-لا أظن ذلك، فأنا أعرف المهندس المشرف على المشروع فهو صارم ولا يحابي أحداً، ثم إننا حاولنا شراؤه، فأبى ذلك، فلم يخبر جابر بما جرى بيننا وبينه.
-إن جابر سبب لنا عقدة نفسية
-ترسو علينا العطاءات فنخسر أو بالكاد نربح القليل بينما جابر ترسو عليه العطاءات فينجح
قال الدرعي:
-أرى أن نُخرج جابر من رؤوسنا
وقف أبو نجيب ثائراً:
-كيف أخرجه من رأسي وقد عشش فيه، والله يا أنا أو هو في الميدان
عندما رأت سهير أن جابر كان لم يعد يهتم بها، ولا يحادثها إلا في شؤون العمل، أخذت تنسحب من حياته شيئاً فشيئاً.
وحلق خيالها في أن تبحث عن حب جديد، فجابر متزوج، فهي تريد رجلاً يكون لها وحدها.
فتذكرت فريد، المهندس في عمان الذي رآها عندما مرّ على مكتب جابر، وكان جابر غير موجود، فلما رآها على الكمبيوتر تعمل بمهارة، أعجب بعملها وقال:
-هل تعرفين فتاة ماهرة مثلك؟
فقالت بحياء:
-لا، ولكن إذا طلبت مني سأكون تحت أمرك
-وجابر؟!
-جابر، رجل ممتاز ولكنني إذا رأيت من يقدر جهدي فما المانع؟
المهندس فريد كان يتمنى أن يجد فتاة تتقن العمل وهو بحاجة ماسة لمن تقوم بالعمل معه بمهارة ودقة.
فقال بعد أن رأى موافقتها:
-ولكن عليك ألا تخبري جابر بذلك
-أمهلني حتى نهاية الشهر
-لك ما تريدين
ثم أخرج من جيبه بطاقة تحمل اسمه وعنوانه ورقم جواله وأردف قائلاً:
-خذي هذه البطاقة، واتصلي بي عندما تنهين عملك من عند جابر
-إن شاء الله
قال بثقة:
-سأعطيك زيادة على ما يعطيك جابر
وفي تلك الأثناء دخل جابر وبرفقته المهندس عبدالفتاح وهو يقول:
-المهندس فريد في مكتبنا يا مرحباً يا مرحباً

قال فريد:
-لقد جئت إليك خصيصاً لتهنئتك بانتهائك من المشروع الأخير
-بارك الله فيك
-إإذن لي، فإني جئت من عمان لزيارة أبي وامي ورأيت أنه من الواجب أن آتي وأهنئك
-نكسبك عندنا الليلة
-لا لا اسمح لي، كرمك معروف، ولكن أمي وأبي بانتظاري إن شاء الله في مناسبة قادمة.
-على بركة الله
خرج المهندس فريد، وبقي جابر وسهير، فقال لها بزران:
-انهيت الأوراق
-نعم
-تستطيعين الرواح إن شئت
قدمت سهير استقالتها وتركتها على مكتب جابر، فلما جاء جابر إلى المكتب فاجأه أمر استقالة سهير فقال:
-خير؟ هل رأيت منا ما يدفعك إلى الاستقالة؟
قالت بحياء:
-أبداً لم أرَ منك إلا كل خير وتعاون ولكن هناك أمور لا تعرفها جعلتني أبحث عن مكان آخر
قال جابر:
-المهم أن تكوني أنتِ راضية عما تفعلين
ثم فتح سجل الموظفين والعمال، وبعملية حسابية ناولها حسابها من أجر وهو يقول:
-أتمنى لك السعادة، وإذا لم تجدي عملاً فمكانك محفوظ
-أشكرك سامحني
خرجت سهير من المكتب، وأفكار شتى تدور في رأسها، بينما كان جابر يقول لنفسه:
-لقد ذهبت آخر حماقاتي ثم انفجر ضاحكاً
في صباح اليوم التالي، كانت سهير تقف بكامل زينتها في مجمع الأمير راشد، لتركب سيارة عمان-الزرقاء، كانت تقصف في عقلها أفكار مجنحة، طلعت بخيالها عالياً، فريد لن يقول لها أهلاً بل إنه سيضمها إلى صدره.
إنه فارس الأحلام الحقيقي وليس مثل جابر المتزوج الذي يريد التسلية والعبث ليس إلا، وحتى إذا لم يكن عابثاً فكيف يشاركني بامرأة ثانية، وعلى كل حال فإن المهندس فريد شاب وسيم أنيق، فأفاقت من على صوت السائق:

-يا آنسة وصلنا تفضلي بالنزول
افاقت من تأملاتها وهي تبتسم:
-آسفة آسفة
وقفت في مجمع السيارات، وسارت باتجاه سيارة المكتب وقالت له:
-شارع المدينة المنورة قرب مجمع النورس
قال السائق:
-تفضلي
ركبت وراعها ازدحام الطريق بالسيارات والمارة، والعمارات الشاهقة بواجهاتها الحجرية الجميلة، ثم توقف السائق وقال:
-هذا مجمع النورس... تفضلي
ناولته الأجرة ثم نزلت من السيارة وأخذ يجول بصرها تبحث عن مدخل العمارة، سألت شاباً واقفاً امام العمارة وقال:
-من فضلك أين مدخل العمارة؟
أشار الشاب إلى مكان المدخل فشكرته، ورأت المصعد على بابه ينتظر رجل في الستين من عمره وفتاة في العشرين ، يبدو أن الرجل أبوها، فتح باب المصعد ودخل الثلاثة فيه. قال الرجل:
-أي طابق تريدين؟
قالت بابتسامة حائرة:
-الطابق الرابع
ضغط الرجل على الطابق الثاني والرابع وصعد المصعد فتوقف فنزل الرجل وابنته ثم تابع المصعد سيره حتى رن الجرس وفتح الباب، وخرجت من المصعد لتقف في ممر طويل سارت في الممر تقرأ القارمات على الأبواب حتى توقفت أمام شركة الثقة المهندس فريد أبو السندس مقاولات ، إشراف، تصاميم، دقت الباب فسمعت صوتاً نسائياً يقول:
-تفضل
دخلت فإذا بها أمام فتاة في العشرين:
-صباح الخير
-أهلاً صباح النور
-انا قادمة بناء على طلب المهندس فريد
-المهندس فريد في موقع العمل وسيأتي بعد نصف ساعة
فإذا جوال الموظفة يخرج منه موسيقى هادئة، قالت إنه الباش مهندس ثم قالت:
-صباح النور
-نعم إنها في المكتب إنها بانتظارك

أنهت المكالمة ثم قالت الفتاة:
-إنه في الطريق إلى هنا
ثم تابعت الحديث:
-لقد أخبرني الباش مهندس عنك
قالت سهير:
-هل العمل يحتاج إلى اثنتين؟
-أبداً ولكنني مخطوبة، واشترط الخاطب أن أترك العمل، ولما أخبرت المهندس بالأمر، قال لي لا مانع عندي، ولكن أمهليني حتى نجد من تقوم بمقامك وها أنتِ جئتِ.
ابتسمت سهير ابتسامة مجاملة وقالت:
-أرجو لك التوفيق والسعادة
-عقبى لك
ابتسمت سهير ابتسامة خجولة وقالت:
-شكراً لك
طرق الباب فإذا هي وجهاً لوجه أمام المهندس فريد وابتسامة تشرق من وجهه وهو يقول:
-أهلاً بك
-أهلاً
-أكيد الأخت سلمى أخبرتك قصتها
هزت سهير رأسها بالإيجاب وقالت:
-أتمنى لها السعادة والتوفيق
قال المهندس فريد موجهاً حديثه إلى سلمى:
-أخت سلمى أرجو منك، أن تطلعي الآنسة سهير على مجريات العمل، وأن تريها ما بقي من أعمال لم تكمليها
قالت سلمى:
-حاضر
تابع المهندس قائلاً موجهاً الحديث إلى سلمى:
-ستظلين معنا إلى آخر الأسبوع
-إن شاء الله
قال فريد:
-في الواقع أنا جئت للمكتب من أجل الآنسة سهير لتعرف ما يجب عليها القيام به.
ثم توقف قليلاً وتابع القول:

-يجب أن أكون في الموقع، لأشرف بنفسي على العمل
ثم ودعهما وغادر المكتب
قالت سلمى:
-الباش مهندس، إنسان طيب ، دقيق في عمله وتصوري أنه ذات يوم، هدم الطابق الأول في إحدى البنايات التي يشرف عليها لنقصان عدد قليل من قضبان الحديد، وطرد المهندس الذي يعمل معه ووبخه...
من يعمل معه لا يشعر بالملل، فهو دقيق في عمله وشعاره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يجب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".
سلمى مسترسلة في صوتها بينما سهير تهز رأسها إعجاباً ودهشة، قالت سهير:
-المخلصون في عملهم قليلون هذه الأيام
-فعلاً، فكم سمعت عن عمارات تنهار على ساكنيها صدقيني هنالك عمارات من الغش تسقط أثناء بنائها.
بقيت الفتاتان تتحادثان حتى حان موعد الغداء.
ودعت سلمى المهندس فريد وسهير وتمنيا لها حياة زوجية سعيدة، شكرتهما بينما كانت دموع حائرة تدور في عينها
لما خلا المهندس فريد وسهير قال:
-كانت سلمى فتاة بسيطة، ذكية، ولما رأيتك في مكتب جابر تعملين بحذق ومهارة، دخلت في رأسي وقررت أن أسرقك منه.
حدق في عينها بُرهة فعرّضت طرفها فقال:
-أكيد لم تفطري بعد؟
-إنني لا أخرج من البيت إلا وأتناول فطوري
-سأتركك الآن ولكن لن أغيب طويلاً
غمرت سهير سعادة، فقد أحست أن المهندس معجب بها، يحادثها برفق، فقامت بتوزيع خصلات شعرها ثم جلست أمام الكمبيوتر كأنها تراجع ما هو مثبت منه، عاد فريد يحمل طعاماً فقال بلهفة:
-هيا... على ما قسم الله
-كل بالهنا... فأنا شبعانة
قال بإلحاح:
-أن لم تشاركيني فلن آكل... لا تخجلي حتى يصير بيننا ملح
قالت والبسمة تزهر على شفتيها:
-أمري لله
وأخذ يناولها قطع الشواء بتؤوده وببطء شديد قال فريد:
-ألم يعجبك الشواء

قالت:
-أبداً إنه شهي ولذيذ
بعد انتهائهما من تناول الطعام قال فريد:
-الآن نستطيع العمل
حمل مجموعة من الأوراق وقال لها:
-أريد طباعة هذه الأوراق
-حاضر

******

أرقَ نادية تجاهل جابر لها ولماذا ينساها وقد همس لها بأجمل كلمة في الوجود "أحبك فأنتِ ملاكي الأثير". ما هذا التحول، والصد القاتل إني أذوب شوقاً للقائه، يجب أن أقابله مهما كانت الظروف، سأواجهه لأعرف خفايا هجره القاسي، وقفت امام المرآة طويلاً وهي ترتب شعرها المجنون فتزينت.
كان جابر في مكتبه وحيداً يطالع في جريدة حينما وقفت نادية ونظرت إليه:
-آسفة لإزعاجك
وقف جابر فهوى شيء في داخله وقال متلعثماً:
-أهلاً وسهلاً... تفضلي
جلست نادية وهي تراقب حركاته وسكناته ثم قالت:
-هكذا نسيتني؟!
قال جابر:
-أبداً سرقني العمل
-أمعقول هذا.... أكثر من خمسة شهور ولا حس ولا خبر
-كيف حالك
-حالي يرثى لها، فإنني مشتاقة لك أكثر ما تتصور
أحس جابر بشعور خفي يتملكه وأمام حديثها وغيابها قال:
-اعترف لكِ سيدتي... إني ظلمتك، كما انني ظلمت نفسي بحرماني من لقائك
غمرت نادية السعادة وقالت:
-الأمر ظاهر خمسة شهور يا قاسي القلب
-صدقيني إن طيفك كان معي
-إني أشكرك لمجيئك المفاجئ الذي ملأني سعادة لم أشعر بها من قبل
-يا قاسي القلب... لقد عذبتني
قال جابر:

-الكلام هنا معاً يتيح للفضوليين الكلام، بما لا يحمد عُقباه، ما رأيك أن تنتظريني في شارع الجيش لنذهب معاً إلى المزرعة، فالحارس استأذن مني لأن صديق له جاء من مصر ويريد أن يلتقي به ليتعرف منه على أحوال أهله؟
قال وهي تضحك:
-حسناً
دخلا البيت الريفي، فألقت حقيبتها على الكنبة، ثم خلعت جاكيتها ورمته ليستقر فوق حقيبتها وهو يغني لعبدالحليم:
-خلاص لقيته وعرفنا بيته والتم الشمل عليه... حبيب حياتي
خلع جابر جاكيته، وحل رطبة عنقه، والشوق يطفح في عينيه السوداوين، وتعانقا وهي تهمس:
-يالك من قاسي
قال لها:
-أحبك
-أموت بك
ثارت براكين الشهوة، قبلت جابر في وجهه وفي شفتيه وهي تقول بشوق:
-آه كم أحبك
أحس جابر أنه يقترب من دائرة اللهب، ابتعد عنها قليلاً فتربعت واستلقت على الكنبة الكبيرة وهي تنظر إليه وتدعوه بيديها الممتديين باتجاهه
-تعال... اقترب
شيئاً في داخله يقول له لا تقترب.
كل ما فيها يدعو للإثارة، شعرها الذي غطى جسدها الثائر، عيناها الساهمتان، لكنها تدعوه وتحثه لقطف الثمرة.
اقترب منها، وقلبه يخفق خفقاناً متسارعاً دنا منا وأخذ يقبلها، ويعبث في شعرها وهي تهمس كفى قبل شفتيها وعنقها وصدرها بينما كانت تلف ذراعيها حول رقبته...
في تلك الأثناء، أخرج نقاله موسيقى ونظر إلى المتصل، كانت زوجته على الطرف الآخر:
-أنا في المشروع بعمان، بعد ساعة أكون في البيت
قالت نادية:
-ليتنا نبقى معاً طوال الليل
-وزوجك
-زوجي العزيز سافر أول أمس إلى دمشق لحضور مؤتمر طبي وابني أرسلته عند أمي

-هكذا إذن... غاب القط العب يا فار

******

بينما كان جابر يقرأ صفحة الإعلانات في الجريدة، وقعت عيناه على عطاء لبناء عمارة من خمسة طوابق، وقرأ الشروط والمواصفات فقام بكتابة رسالة للدخول في المناقصة وأرسلها بالفاكس.

بعد حوالي شهر من تاريخ إرساله الفاكس وصله رسالة من صاحب المشروع أن العطاء رسا عليه ويريدون منه المجيء إلى مكتبهم للاتفاق على الإجراءات.

كان جابر دقيقاً في مواعيده، رحب صاحب المشروع بجابر كثيراً وهو يقول:

-أهلاً وسهلاً

-وبك أكثر

-أحب أن أخبرك أن موافقتنا عليك، لما عرفناه عنك من الصدق بالعمل والإنجاز في وقت قصير

-هذه أمانة، لقد رأيت ما قمت به من مشاريع فأعجبتني كثيراً، بعد أن تشرب قهوتك نذهب معاً إلى قطعة الأرض

-على بركة الله

وقف أبو علاء، صاحب المشروع أمام قطعة أرض على الشارع العام أرض يحيط بها العمارات الشاهقة وقال:

-هذه قطعة الأرض، أريد الطابق الأرضي مخازن تجارية والطوابق الباقية أريدها مكاتب

هز جابر رأسه وقال:

-تفكيرك سليم، وبناء استثماري ناجح

-إن شاء الله

-إذن نعود إلى المكتب وأعطيك المخططات ومتى تريد بدء العمل

-أولاً نجهز ما نحتاج إليه من مواد، وننقل المعدات وفي بحر الأسبوع نبدأ بحفر الأساسات

-حسناً

في أحد أيام آب اللهاب، دخل المهندس فارس عبدالهادي (المهندس فارس يعمل مع شركة أبو نجيب) مكتب جابر ألقى السلام فقال جابر:

-أهلاً وسهلا

-أهلاً بك

-كيف أخبار أبي نجيب؟

ما كاد جابر يذكر اسم أبي نجيب حتى كست وجه المهندس سحابة حزن وغضب فقال:

-لقد تركت العمل معه
-خير
-يا أخ جابر إنه رجل طماع، غشاش، لقد حاولت مراراً أن أثنيه عن حماقاته واستغلاله ولكنه كان يرفض نصحي له، ولما رأيت إنه يزداد غشاً قررت ولهذا قررت ترك العمل معه
-أمعقول ما تقول؟!
قال المهندس فارس:
-وأكثر من ذلك
قال جابر:
-الله يهديه أرواح الناس ليست لعبة
قال المهندس فارس مؤكداً:
-لقد قلت له ذلك فقال لي أنت مسكين!! أحمد الله أنني تركت العمل معه
-وماذا ستعمل؟
-لقد قررت أن أعمل منفرداً في مكتب هندسي أقوم بإعداده
-عال العال، وإن شاء الله سنتعاون معك في الإشراف على مشاريعنا
-أنا بالخدمة
قدم جابر لضيفه فنجان قهوة سادة:
-تفضل
-من يد لا نعدمها
بعد أن رشف المهندس فارس فنجان السادة، وقف وقال:
-إئذن لي
-الله معك
مع خروج المهندس فارس عبدالهادي من مكتب جابر دخلت الأفكار رأس جابر يحدث نفسه أن الرجل ربما يكون صادقاً، أو ربما تكون لعبة من أبي نجيب ليكون المهندس فارس عيناً لأبي نجيب، أو ربما يكون صادقاً فيما قاله على كل حال، إن احتجت إليه سأكون حريصاً على متابعة ما يقوم به عندي.
في مكتب أبي نجيب كان المهندس فارس عبدالسلام قد دخل والبسمة على فمه فقال أبو نجيب:
-قمحة أم شعيرة؟!
-قمحة، لكن سامحني يا أبا نجيب، فقد وصفتك بصفات لو كنت حاضراً لرميتني بالرصاص
قال أبو نجيب:
-هذا ليس مهماً، ولكن المهم أن يبتلع جابراً الطُعم

قال المهندس فارس:
-لقد ابتلعه.. ووعدني بالعمل معه
-إذ يا بطل في أول فرصة تسنح لك عليك بهدم أسافين نهايته... فأرينا شطارتك
في تلك الأثناء دخل الدرعي على أبي نجيب متسائلاً:
-كيف تسير الأمور؟!
قال أبو نجيب بثقة:
-لقد انطلت على جابر الحيلة
-إذن يا سادة يا كرام على جابر السلام
ضحك الثلاثة ضحكة الانتصار، وقال أبو نجيب:
-بهذه المناسبة، واخرج من درج مكتبه زجاجتا خمر-سنشرب نخب جابر
علت ضحكاتهم وكأنهم ثملوا قبل أن يشربوا، ثم أخذوا يصبون الخمر، وبعد أن عصفت رؤوسهم قال أبو نجيب وهو يصب الخمر:
-اليوم خمر وغداً أمر
حين التقى جابر المهندس عبدالفتاح قال المهندس:
-أمس رأيت عندك المهندس فارس مهندس أبي نجيب رأيته عندك، فحولت طريقي،لانني لا أحب أن أقابل هذا النوع من البشر
-الرجل مسكين، وترك أبي نجيب لأن أبا نجيب رجل يجري الغش والكذب في دمائه
-أصدقت ما زعمه؟!
-لنا نحن الظاهر أما الباطن فعلمه عند الله
-يا أخ جابر ذيل الكلب يظل أعوج
-قلت لك عندما يعمل معنا، لا تتركه وحيداً، نكون حريصين على مراقبة عملة دون أن يشعر
قال المهندس عبدالفتاح بثقة:
-سأكشف لك امره، لأن من شب على شيء شاب عليه
ثم أردف عبدالفتاح قائلاً:
-ما رأيك نجعله يشرف على إحدى العمارات، ثم نقوم بعد انصرافه وانصراف العمال بمعاينة ما تم تنفيذه؟!
قال جابر:
-حسناً، وأرجو أن يكون صادقاً
قال المهندس عبدالفتاح:
-منذ عدة أيام لم أرَ سُهير، ما الأمر؟
-لقد تركت العمل بناء على طلبها
-يوجد عندي ابن صديق لي ربما يكون أفضل من سهير

-لقد كانت سهير ممتازة
-إذاً وافقت على ابن صديقي سيكون عندك غداً
-حسناً اخبره بالمجيء غداً وسنرى عمله
-خير البر عاجله... فأخرج جواله واتصل بصديقه:
-السلام عليكم... الأخ أبو سامر
-هل وجد ابنك سامر عملاً
-إذن غداً في الثامنة صباحاً يكون في مكتب السيد جابر
-لا شكر على واجب

******

في مكتب جابر بينما كان جابر يقرأ في الجريدة، دخل المكتب شاب وسيم وقال:
-حضرتك السيد جابر
-نعم تفضل
قال الشاب:
- جئت بناء على طلبكم
-إذن أنت سامر
-نعم
-أهلاً بك، هل عملت في السابق عند أحد
-لا محسوبك خريج جديد
وأخرج سامر مظروف كان معه عدداً من الشهادات والدورات:
أخذ جابر يقرأ الشهادات والتي كان التقدير فيها ممتاز قال جابر بإعجاب:
-ما شاء الله... على كل حال إن عملك يتطلب دقة، ويمكنك فتح الكمبيوتر لترى طبيعة عملنا
قال الشاب:
-يمكن أرى الكمبيوتر، لأطلع عليه
-تفضل
فتحت شاشة الكمبيوتر، وأخذ سامر ينظر باهتمام واخذ يضغط على الأزرار وبعد دقائق التفت إلى جابر وقال:
-هذا أمر سهل
قال جابر:
-إذن على بركة الله
شعر سامر بالراحة، لأن عمله سهلاً وإنه سيعمد إلى طباعة ما يطلب إليه أمر لا يحتاج إلى مشقة كبيرة.

اما جابر فقد أحس بارتياح كبير لأنه عثر على موظف يبدو على سيماته النجابة والشوق إلى العمل.

******

كانت نادية تنتظر دورها في صالون الأناقة، دخلت سيدة تفيض أنوثة ورشاقة، فلما رأت نادية قالت بدهشة:

-معقول نادية يوسف

رفعت نادية رأسها فقال:

-ميرفت!!

كان لقاءاً مثيراً بين نادية وميرفت، كانتا صديقتين، وكانتا من أكثر بنات الصف اجتهاداً، كانتا كفرس رهان.

قالت نادية تخاطب ميرفت:

-يا الله كم مر على فراقنا؟!

قالت ميرفت بعد فترة صمت وقالت:

-منذ حصولنا على التوجيهي

-يعني من ثماني سنوات تقريباً

قالت نادية وابتسامة تفيض شوقاً:

-حدثيني عنك، فإنني أتوق إلى سماع أخبارك

قالت ميرفت:

-بعد حصولي على التوجيهي بستة أشهر تزوجت من خيري أبي النور، كان يعمل في الكويت بمؤسسة الموانئ، سافرت معه بعد الزواج بشهر تقريباً، فلما حصلت حرب الخليج واحتل صدام الكويت تركنا الكويت وعدنا للأردن. وسكنا في جبل طارق مع أبي خيري، في شقة صغيرة كانت في بادئ الأمر كبيرة، ولكن مع وجود الأولاد والأثاث صارت ضيقة وإن شاء الله سنبني بيتاً نستقل فيه.

قالت نادية:

-الله كريم، فقد كنا نعيش في بيت لا يليق بطبيب لكن الآن الحمد لله.

قالت ميرفت:

-زوجك طبيب

-نعم طبيب أسنان

قالت ميرفت بشوق:

-وبعد ذلك؟

-بعد ذلك يا عزيزتي بنينا بيتاً جميلاً في ضاحية مكة.

-إن شاء الله تتهني فيه

-عقبالك

-نحمد الله لأننا اشترينا قطعة في جبل طارق قريباً من سكن حماي أبي سعيد، وبيني وبينك نحن ننتظر التعويضات من حكومة الكويت لنقوم بالبناء
في تلك الأثناء انتهت صاحبة الصالون من مكياج شهد وقالت:
-أخت نادية تفضلي، دورك
بدأت صاحبة الصالون بعملها، وكانت تأخذ برأي نادية، بينما كانت ميرفت تقرأ في مجلة نسائية.
بعد أن انتهت صاحبة الصالون، كانت نادية في كامل زينتها كعروس جميلة، فقالت ميرفت معجبة:
-قمر والله قمر
ضحكت نادية وقالت:
-انقلي رقم نقالي وأريد أن تعطيني رقم نقالك حتى نكون على اتصال
-ضروري، يجب أن نكون على اتصال دائم
واستأذنت نادية منها وهي تقول:
-لا تنسي أن تتصلي بي
-إن شاء الله

*****

جابر يقف مع المهندس عبدالفتاح بالمشروع، يتجولان في العمارة قال جابر:
-الآن نستطيع القول باننا بحاجة إلى المهندس فارس
قال عبدالفتاح:
-دعنا منه فأخشى أن يسبب لنا مشاكل
-يا سيدي نتركه يعمل، ونضعه تحت أعيننا
-كما تريد
اتصل جابر بالمهندس فارس:
-صباح الخير، أريدك أن تمر عليّ أنا في ضاحية مكة، هل أنت مشغول؟
-إذن أنا بانتظارك... حتى أريك الموقع
وصل المهندس فارس بعد أقل من نصف ساعة فقال جابر مرحباً:
-أهلاً بشمهندس، أريد أن أريك قطعة الأرض التي ننوي بناء عمارة عليها، وسأسلمك المخططات، عندما نرجع إلى المكتب، ونريد همتك بشمهندس
-أرجو أن أكون عند حسن ظنك
-المهم عندي الصدق بالعمل
-إن شاء الله سيسير العمل كما تريد
قال جابر:

-غداً يكون عندك العمال، والآليات، ومعلم البناء وسيارات الماء، وكما رأيت الحصمة نزلناها قبل يومين، وكل ما تحتاجه من مواد، وآليات عليك الاتصال بالمهندس عبدالفتاح
ثم اخرج بطاقة المهندس عبدالفتاح وقال:
-اتصل به، فإن تعذر الاتصال به، رقم نقالي عندك
-سأكون جاهزاً، اتفقنا
-اتفقنا

******

نادية كانت في المطبخ تعد طعام الغداء، سمعت نقالها يخرج أنغاماً جميلة:
-أهلاً ميرفت
-أهلاً بيك أين أنتِ؟
-في المطبخ أعد طعام الغداء وأين أنتي؟
-أنا بالسوق
-ما رأيك لو تتفضلي عندي في البيت
-هذا وقت غير مناسب
-كل الأوقات مناسبة للحبايب، لا تترددي أريد أن تري بيتي ونجلس لنعيد الذكريات الجميلة
-وزوجك؟
-زوجي في العيادة، وقد أخبرني أنه سيتناول طعامه في العيادة
-إذن أعطني العنوان
قالت نادية:
-اركبي سيارة الأجرة، وقولي للسائق ضاحية مكة قرب مدرسة البنات، على يمينها عدي ثلاث عمارات منزلنا العمارة الرابعة، سأكون على الشرفة بانتظارك
قال السائق بعد أن توقف:
-وإن لم أكن مخطئاً فهذا هو العنوان
نزلت ميرفت من السيارة وقرأت على باب العمارة (منزل الدكتور طلال أسعد) في تلك الأثناء، كانت نادية على الباب تشرق على وجهها بسمة خفيفة.
-أهلاً وسهلاً
-أهلاً أهلاً
-أرأيت عنوان بيتنا لا يضيع أحداً
وقفت ميرفت وقد عقدت الدهشة لسانها، فيلا جميلة، فقالت نادية:
-بل أروع ما رأت عيناي
وحينما دخلتا داخل الفيلا ازداد إعجاب ميرفت وقالت:

-ما أجمل منزلك..!!! إنني احلم أن يكون لي بيت مثل هذا
قالت نادية:
-الله كريم
-الذي بنى بيتكم ذواق
قالت نادية:
-إنه صديق لزوجي
-سأخبر زوجي خيري عنه ليبني لنا مثل بيتكم
-إنه جابر وهو متعهد يبني تسليم مفتاح
-حسناً سأقنع زوجي، وأريه بيتكم إن لم يكن عندكم مانع.
-لا أبداً، تفضلوا بكل سرور متى شئتما

******

كان المهندس عبدالفتاح يهم لترك موقع العمل، ليذهب إلى حيث يعمل المهندس فارس ليرى كيف تسير الأمور ولما التقى بالمهندس فارس بادره بالسؤال:
-كيف العمل يسير؟
-على أحسن وجه
-حفرنا الأساسات كما ترى، ومعلم الطوبار يعد الحديد
كان المهندس عبدالفتاح يدقق في كل شيء، ولم يجد ما يدعو إلى الشك، وقد حدثته نفسه أن المهندس فارس جاداً في عمله في تلك الأثناء وصل جابر ولما رآهما قال:
-الله يعطيكم العافية... كيف تجري الأمور؟؟
قال المهندس فارس بثقة:
-كما تريد يا معلم
قال المهندس عبدالفتاح:
-الأمور تسير بشكل جيد والمهندس فارس دقيق في عمله والأمور جيدة
قال جابر مخاطباً المهندس فارس:
-هل تحتاج إلى شيء؟
-حالياً لا شيء، ولكن بعد غدٍ إذا احتاج المشروع لشيء اخبرتك
-عال العال

******

استلم خيري ما قُدر له من نقود من حكومة الكويت، كان مبلغاً ضخماً يزيد على المائة ألف بقليل، ولما عاد إلى البيت كانت ميرفت بانتظاره فقال لها:
-خمني كم طلع لنا من تعويضات الكويت؟
قالت بشوق:
-قل أنت!!

-إن المبلغ يزيد عن المائة ألف دينار
-إذن قبل أن تبعثر النقود، نريد أن نبني بيتاً مريحاً جميلاً، والحمد لله الأرض موجودة.
قال خيري:
-خير تقولين سأبحث عن مقاول وأعهد إليه بالبناء
قالت ميرفت:
-المقاول موجود، لقد زرت صديقة لي من أيام الدراسة، إن بيتها يجنن ويُطير العقل، وحتى تصدق نذهب معاً، ونُريك البيت دون عِلم أهله
-وأين يوجد؟!
-في ضاحية مكة
-إذن بعد أن نتناول الطعام وآخذ قسط من الراحة أكون تحت أمرك يا سيدتي الجميلة
-كما تشاء، فإنك تعبت اليوم كثيراً
قبل الغروب كان خيري وميرفت يقفان أمام منزل الدكتور طلال في ضاحية مكة، هاله ما رأى، من جمال الفيلا وقال:
-فيلا رائعة
-إذا أردت أن تتفرج أكثر... استأذنت من صديقتي
-هكذا لا
-يا رجل إن صديقتي لا تمانع، بل رحبت بالأمر
تردد خيري... وبين تردد الزوج... ضغطت ميرفت على الجرس، فجاء صوت نادية:
-من على الباب؟
-أنا ميرفت
-أهلاً وسهلاً
-معي خيري زوجي
-أهلاً وسهلاً بكما
أقبلت نادية مرحبة فقالت ميرفت:
-أحببت أن يرى زوجي الفيلا، فقد جاء ليرى بيتكم ولكثرة ما قلت له عن جماله
قال سألقي نظرة إليه من الشارع ولكثرة إلحاحي وافق
كان خيري يبتسم ابتسامة خفيفة، فقال:
-آسفين للإزعاج
-لا أبداً البيت بيتكم
-يسلم البيت واصحابه
-تفضلوا

سارت نادية ومن خلفها يسير خيري وميرفت، كانت ميرفت تقول لزوجها بإعجاب:
-أرأيت ما أجمل الفيلا، حديقة جميلة تحيط بالبيت فيها أنواع كثيرة من الأشجار الجميلة ما رأيك؟!
-سأذهب إلى المتعهد الذي بناها وأفاوضه على بناء بيت مثل هذا
قالت نادية وهي تناول ميرفت كارت جابر:
-هذا الكارت لزوجك وإن شاء الله لا يصير إلا الخير
*****
كانت سهير في مكتب المهندس فريد تقوم بعملها بشوق حتى دخل المكتب المهندس فريد فقال:
-صباح الخير
-صباح النور
-هل أنجزت الأوراق التي أعطيتك إياها؟
ناولته الأوراق ونظر إليها وقال:
-إن عملك لا يضاهي
ثم نظر إليها فتسمرت عيناه بعينيها غطت طرفها فقال:
-ما أجملك!!
قالت بحياء:
-شكراً
قال وقد أسره جمالها وحياءها:
-سأقول لك، أنا رجل صريح، والله إنك أجمل فتاة رأيتها في حياتي
قالت بحياء:
-آه
إذا قلت لك إنك منذ أن عملت معي تفتحت أبواب الرزق معي
-الحمد لله
-صدقيني إنني عندما أراكِ أشعر بالسعادة كأنني أعرفك منذ زمن بعيد جداً
لم تنطق سهير ببنت شفة، بل كان قلبها يرقص طرباً لما سمعته من كلام شاعري، قطع صوت المهندس فريد حبل صمتها:
-تكلمي
قالت بحياء:
-ماذا أقول؟؟!!
فقال يغني أغنية عبدالحليم:
-قل لي حاجة أي حاجة.. قل أحبك قل كرهتك
اكتسى وجهها بالحمرة فقالت:

-لقد فاجئتني ولست أدري ما أقول وإن شعوري نحوك يزداد يوماً بعد يوم ولكنني خائفة!!
ذُعر كمن لسعته أفعى فقال:
-مم تخافين... قولي مني!!
-أخاف أن يكون حبك ملهاة
قال بهيام زائد:
-قولي احبك وأنا مستعد من الزواج منك حالاً.
-حالاً... وأهلي وأهلك لا نشاورهم
-بلى يوم الجمعة القادم أبي وأمي إلى بيتكم مساء، وطالما أنا راضي وأنتِ راضية فكل شيء يهون
قالت:
-إن أبي رجل بسيط، وبيتنا أيضاً بسيط
-يا حبيبتي لا تُعقدي الأمور إني أريدك لأنني عندما رأيتك قلت هذه من أبحث عنها.
ضحكت مستسلمة وقالت:
-أرجو ألا يخيب ظنك بي، سأكون نِعم الزوجة إن شاء الله
-وسأكون نعم الزوج

******

كانت نادية تعد طعام الغذاء، كانت الساعة تقترب من الواحدة، حيث أخرج نقالها أصوات موسيقى، نظرت في شاشة النقال وقالت:
-أهلاً ميرفت
-أهلا بك ... أزعجتك
-ولو... كم أنا سعيدة لسماع صوتك
-القلوب عند بعضها
-أين أنتِ؟!
-إنني في البيت، وقد جاء زوجي ومعه نقود الكويت
-ألف مبروك
-رتب زوجي لقاء مع المتعهد جابر
قالت نادية:
-ما رأيك اذهب معك أنتِ وزوجك إلى مكتبه
-نحن بهذا نتعبك
-توكلي على الله
-إذن أحدث زوجي وأخبرك

-كما تشائين

******

اتصلت نادية بجابر وقالت له بفرح:
-أين أنت يا رجل، والله اشتقنالك
-وأنا كذلك، أين أنتِ؟
-في البيت،
ثم أردفت قائلة:
-اسمع، اليوم بعد العصر سأكون في مكتبك مع صديقة لي وزوجها يريدون أن تبني لهم بيتاً مثل بيتنا
-معنى ذلك تريدين عمولة؟!
-العمولة التي أريدها منك أن تحافظ على حبي
ضحك ضحكة طويلة وقال:
-وهل رأيتِ مني تقصيراً
-أبداً فأنا متلهفة لرؤيتك
-ليس أكثر مني
-على كل انتظرنا في المساء
-سأكون في الانتظار
في المساء كانت نادية وصديقتها ميرفت وزوجها عند مكتب جابر، وقف جابر مرحباً وسلم على الرجل:
-أهلاً وسهلاً
قال خيري بوقار:
-أهلاً بك، الحقيقة إننا رأينا بيت الدكتور طلال فأدهشنا عملك
قال جابر:
-استغفر الله
-نريد بيتاً مثله
-إن شاء الله وأجمل
تدخلت نادية محتجة:
-يعني أجمل من بيتنا!!
-أقصد أنه سيكون في روعة بيتكم
قال خيري:
-وما المطلوب مني؟!
-مطلوب منك أن ترينا قطعة الأرض التي سيقام عليها البناء، أما المخططات فهي عندي جاهزة، فهي نفس مخططات الدكتور ننسخ عنها.

قال خيري:
-عال العال، وفر علينا ثمن المخططات
قال جابر ضاحكاً:
-نعم
-ما رأيك لو لنذهب لنرى الأرض
-لا مانع عندي
كانت قطعة الأرض في جبل طارق بنايات متناثرة، كانت تطل على شارعين فقال جابر بإعجاب:
-قطعة الأرض في موقع جميل، وحي جديد، وإن شاء الله سأطلب من المساح تحديدها في أقرب وقت، وسأعطي البناء المخططات ليبدأ العمل.
قال خيري:
-ما المطلوب مني؟
قال جابر:
-لا نختلف، نكتب العقد غداً في المكتب وعلى فكرة، إذا كان في البيت مواصفة فيلا الدكتور، فلن يأخذ الأمر إلا فترة وجيزة.
كانت نادية وصديقتها تقفان بعيداً عن جابر وخيري وتتحادثان في أمور شتى.
قال جابر يخاطب الرجل:
-غداً تتفضل على المكتب
-إن شاء الله... ما رأيك بفنجان قهوة
ثم أشار إلى بيت وأدرف قائلاً:
-بيت والدي ذاك البيت، نشرب القهوة معك
قال جابر معتذراً:
-الأيام قادمة... نستأذن
قالت نادية:
-خذني معاك
-تفضلي
بعد أن ركبت نادية إلى جانب جابر في السيارة وأخذت السيارة تسير سيراً حثيثاً قالت له:
-وكيف أنت...؟!
-الحمد لله
قالت:
-ما رأيك، نقضي ساعة من الزمن في المزرعة؟
قال لها:

-المزرعة، مستحيل اليوم هناك عمال يقومون بتسميد الأرض، وقد اتصلت بهم قبل مجيئكم فأخبروني أنهم لا يزالون يعملون
-إذن نذهب إلى أي مكان؟
-أرى أن أوصلت لبيتك
-كأنك تريد أن تتخلص مني!!
لم يجب بل ابتسم ابتسامة جعلتها تتابع القول:
-ما أجمل ابتسامتك!
-أتعرفين، والله لولا مخافة الله ثم مخافة ألسنة الناس لسرت معك أمام العالم كله ولكن...
قالت وهي تضحك:
-ولكن أخاف عليكِ
ثم أردف قائلاً وهو يوقف السيارة
-تفضلي انزلي فنحن أمام بيتك
-يا إلهي... ما أسرع الوقت
قال وهي تنزل من السيارة وهي ترفع يدها:
-شكراً شكراً مع السلامة

******

أحست ميرفت بحس المرأة أن علاقة ما بين نادية وجابر وإلا ما معنى أن تقول نادية لا بالله عليك، أرأيت كم هو وسيم وجميل، وقالت كأنها تغيظها، أرأيت كما يعاملني بلطف
اشتعلت نيران الغيرة القديمة في قلب ميرفت وقال تحدث نفسها:
-سنرى من يفوز بقلب جابر أنا أم هي وسأبدأ من الآن
استعملت جوالها واتصلت بجابر، كان جابر في المكتب مستلقٍ على كنبة طويلة، وقد غطى وجهه بجريدة كان يقرأها.
رن نقاله فرمى الجريدة عن وجهه وجلس نظر إلى شاشة النقال: كان الرقم غريباً عليه.
فقال بلطف:
-أهلاً وسهلاً
فإذا بصوت نسائي ناعم، صوت جميل ساحر.
-احزر
لم يرد جابر بل توقف قليلاً:
-أنت تعرفني، ومعرفتنا لم يمضِ عليها سوى يومين
قال جابر وأحس بشوق كبير ليعرف من هذه السيدة ذات الصوت المخملي.

-من أنتِ؟!
-أنا زوجة خيري الذي يريد بناء بيت في جبل طارق
قال جابر:
-أهلاً وسهلاً
-حبيت أن أكلمك بخصوص بيت الدكتور طلال
-خير غيرتم رأيكم
-لا، ولكن نريد بعض التعديلات
-الكلام بالنقال لا يفيد
-حسناً متى أراكِ؟
-وأين زوجك السيد خيري
-زوجي في العقبة لعدة أيام لمهمة من قبل شركته
-تفضلي إلى المكتب بعد العصر
ضحكت ضحكة سافرة:
-إلى اللقاء
-مع السلامة
بعد العصر كانت تلبس كامل زينتها، نزلت من السيارة وقف جابر حين رآها.
قالت والبسمة تضيء وجهها الطافح بالسعادة:
-إنني دقيقة في مواعيدي
-وأنا سعيد بمجيئك ... تفضلي
جلست والأنوثة تتفجر من عينيها الخضراوين فقال:
-وما هي التعديلات التي تريدينها على الفيلا؟
قالت بهدوء:
-واجهة الفيلا... أريد أن تضع لي قرميد عند المدخل على أعمدة مصقولة، وأن يكون القرميد الأحمر أعلى النوافذ أيضاً
-لكن هذا يكلف أكثر
-أعرف ذلك
-كما تريدين
من ثلاجة المكتب أخرج علبة عصير وقدمها إليها:
-تفضلي
-سلمت يداك
حدثت نفسها قائلة:
-إني أحب الرجل المتفائل، الواضح
قال ليجاريها الحديث:

-هذا طبعي ... والطبع غلب التطبع
حدقت في عينيه فانسال العرق من جبينه فأخرج منديلاً في جيبه، وقال وهو يمسح العرق:
-الحر شديد
قالت:
-وأحب الرجل الخجول
جابر من خلال تجاربه الغرامية، عرف أن ميرفت تميل إليه، وأنها تموت به عشقاً وكل كلامها يوحي إلى ذلك، ولهذا أحب أن يتأكد من حدسه فقال بحذر:
-متى نراكِ، حتى أريك تصاميم المواجهة للفيلا ؟
قال:
-غداً أراك في قطعة الأرض التي نريد البناء عليها
-في أي وقت؟
-في الوقت الذي تحدده، بشرط أن يكون بين العصر والمغرب لأنني يجب أن أكون في البيت مع الغروب خوفاً من لسان حماتي الحاد
-وزوجك خيري
قالت وهي تبتسم ابتسامة عريضة:
-مكوثه في العقبة أسبوع
ثم أردفت:
-أنه يثق بي ثقة عمياء
تشجع وقال لها:
-أتدرين إنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي
قالت تريد أن تشعر بعلاقته مع نادية:
-وأجمل من نادية؟!
-نادية جميلة، واحترمها كأختي وزوجها صديقي
-لكني أراها تميل إليك
-هي حرة، لكنني أنا أعرف حدودي
ابتسمت ابتسامة خفيفة ثم قالت بإصرار:
-أنا لا يهمني، المهم أنا ما أعجبك بي
قال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:
-كلي على بعضك، كل ما فيك جميل، وجهك الحلو، عيناكِ الخضروان، الساحرتان ، ثم توقف قليلاً
فقال:
-ثم ماذا لا تخجل

-ثقتك بنفسك
-إن ما تقوله شهادة اعتز بها، ولكن قل لي بصراحة ما يعجبك في نادية.
-لاتغضبين...!
-نعم
-إذا قلت شعرها
-نادية جميلة رقيقة، مربية، تحب زوجها ويحبها
اعترضت ميرفت!!
-بدأنا نكذب
-صدقيني إن علاقتي مع نادية علاقة أسرية ليس إلا وزوجها صديقي.
لم تصدق ميرفت ما قاله جابر بشأن نادية، لأن تصرفات نادية كانت تنبئ عن علاقة، ومعروف في علم النفس إن ما يُخبئه المرء، يظهر في فلتات لسانه، فكثراً ما كانت نادية تذكر جابر على لسانها فيبدو عليها الاضطراب.
أنا أعرف مئة بالمئة أن هناك علاقة بين جابر ونادية وإن حاول الاثنان نكران ذلك ثم لم لا أُحرج نادية واستدرجها في الحديث.
لا تدري ميرفت لم ارتاحت لهذا القرار المثير. في تلك الأثناء، قَدِم موظف الكمبيوتر، ألقى التحية فقال جابر:
-هل أتممت مخططات السيد خيري زوج ميرفت؟
-نعم
قال جابر برضى:
-إذن انتبه، هناك تغيير في واجهة الفيلا أريد منك تثبيته.
-على رأسي
استأذنت ميرفت وغادرت المكتب.
بينما كان جابر في نشوة كبيرة، قال في نفسه:
-نادية جميلة ورائعة، وميرفت لا أقول أنها أجمل ولكن لكل واحدة جمالاً آخاذ لأجرب رحلة الحب مع ميرفت.

******

التقى جابر بالمهندس (عبدالفتاح) في المشروع وسأله:
-كيف تسير الأمور في المشروع؟
-كما خططنا له
-والمشروع الثاني؟
قال المهندس عبدالفتاح:
-المشروع الثاني يسير على أكمل وجه والمهندس فارس يبدي عن ارتياحه بالعمل معنا ويتودد إلي كثيراً.

قال جابر بعد فترة صمت:
-اسمع أريدك أن تستدرجه، أظهر له الود ثم حدثه بأسلوب عن الظلم الواقع عليك، اتبا ما تراه مناسباً للارتفاع به
-حسناً كما تريد يا معلم
-متى سنبدأ العمل في فيلا السيد خيري؟
-فور انتهائنا من المشروع
-حسناً أريد همتك
-بعد شهر تقريباً... وأنت سيد العارفين
-حسناً.... حسناً
ثم أردف قائلاً:
-أنت تعرف أن مخططات السيد خيري هي نفس مخططات فيلا الدكتور طلال أسعد
-ما رأيك لو أرسلت الجرافة والهوك لحفر الأساسات حتى نشعرهم إننا جادون في العمل
-رأي صائب، غداً نبدأ كما تريد
-عال العال
-هكذا نكون في التمام ثم ناوله المخططات
اتصلت ميرفت بجابر كان النهار قد انتصف:
-مساء الخير
-أهلاً ميرفت
-اسمع، سأكون بانتظارك عند الإشارات الضوئية عند جسر الزرقاء، أول الشارع المؤدي للجبل الأبيض في الساعة الخامسة بالضبط اتفقنا
كان جابر في المكتب سارحاً شارداً بأفكاره، فقد سكنت ميرفت في قلبه، ونمت على جدران قلبه كقرنفلة جميلة تفيض عطراً نظر إلى الساعة كانت تشير إلى الثانية، تتأفف قائلاً في نفسه:
-لماذا عقارب الساعة لا تسير، إن سيرها بطيء أبطأ من سلحفاة هرمة، الانتظار قاتل، يولد السأم والملل والعصبية.
اتصل بزوجته ليخبرها لعدم استطاعته المجيء:
-مساء الخير
-مساء النور
-تستطيعين تناول الغداء مع كمال، لأنني سأذهب إلى المشاريع وسآكل مع العمال هناك.
-كما تريد

ألقى جابر برأسه على الكنبة ومد رجليه، وراح في إغفاءه،، فصحى من النوم على صوت صديقه القديم أبي رامي.
قال أبو رامي يعتذر لأنه أزعجه:
-آسف يا صديقي
قال جابر وهو ينظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الرابعة والنصف وقال يخاطب أبو رامي:
-أهلاً أبو رامي
-كنت ماراً من هنا، فقلت أرى صديق الصبا والشباب
-حياك الله
-أتدري من رأيت أول أمس؟
-مَن؟
-إبراهيم يحيى
-إبراهيم يحيى أبو النكت الحلوة
-أبو النكات العذبة، وقد جلسنا على جانب الطريق وتحدثنا طويلاً، وسألني عنك وحملني السلام لك
-الله يسلمك ويسلمه
-وما هي آخر نكتة؟
ضحك أبو رامي ضحكة مدوية قال جابر:
-شاركنا في الضحك
-اسمع: رجل كان في العمل رفع التلفون، واتصل بزوجته مزمجراً، غاضباً وهو يقول اسمعي يا زوجتي، أريد أن يكون الماء ساخناً عندما آتي للبيت فاهمة، فقال له أحد رفاقه في العمل، أقسم إنك رجل بمعنى الكلمة، رد الرجل باستغراب وهل تريدني أن أقوم بتنظيف أواني الطبخ بماء بارد.
غَرق جابر بالضحك، قال أبو رامي:
-هناك نكتة أروع
-هاتها
-قال رجل: أنا رجل عنيد مع زوجتي تقول لي اغسل الملابس فأرفض وأقوم بتنظيف البيت، تقول رتب الملابس فأذهب وأعد الطعام.
ضحك الاثنان ضحكات طويلة، ثم نظر جابر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الخامسة إلا عشر دقائق فقال لأبو رامي:
-اعتذر منك عندي ميعاد مع عميل
-توكل على الله... فأنا على موعد من طبيب العيون
-طيب

-أراك إذن، لا تنسى أن تمر عليّ كلما سنحت لك الفرصة
-إن شاء الله، أنا خلال هذا الشهر عندي مراجعة عند طبيب العيون، وإن شاء الله كلما سنحت لي الفرصة أمر عليك
ركب جابر سيارته حتى وصل جسر الزرقاء، كانت نظراته تبحث عن ميرفت، فلمحها تسير ببطء، أوقف السيارة قربها، فنزلت عن الرصيف، وجلست إلى جواره:
-كيف الحال؟
نظر بمرآة السيارة فتعلقت عيناه بعينيها فقالت:
-لا نريد أن نطيل الوقت، معنا ساعة
-كما تشائين
قالت بدلع زائد:
-آه ما أقساك... لم أنم البارحة وأنا أفكر بك
-يا حبيبتي
قال جابر:
-ما رأيك لو ذهبنا إلى أحراش جرش؟
قالت بقلق:
-أخشى أن يكون هناك ناس
-نجلس في مكان لا يرانا الناس فيه
-كما تشاء
انطلقت السيارة محولة اتجاهها إلى طريق ياجوز أخذ جابر يغني أغنية لعبدالحليم حافظ بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود.
كان يغني بصوته الرخيم معكراً على عبدالحليم، كانت ميرفت تسمع له بشغف، ويضيء وجهها ابتسامة رائعة وجابر يغني طرباً منتشيا.
فمها مرسوم كالعنقود
والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا
-أزعجتك
-لا، إن صوتك عذب ورائع
قال جابر وهو ينظر إلى عينيها العذبتين:
-أتحبين الغناء
قالت:
-احبك أنت
قال:
-الحب جدول خمر من تذوقه خاض الجحيم ولم يشفق من الحرق
قال وهي تبتسم:

-ها نحن نحترق بجوى الحب
مد يده وامسك يدها، وأخذ يضغط عليها برفق، فيما هي لم تحرك ساكناً، مر عن أحراش ياجوز ولكنه لم يدخل إليها وتابع السير باتجاه الجبيهة، كانا في حالة عشق.
بدأ النهار يجمع حوائجه، ليرحل، الشمس تختفي رويداً رويداً خلف الجبال وبدأ الظلام يفرد عباءته فقالت:
-نرجع
-كما تشائين... أسعيدة أنتِ
-أنا معك أشعر بالسعادة تغمرني وتملأ نفسي بالفرح
-الحياة جميلة، وأجمل شيء فيها حبيبان مخلصان يفرد الأمان والإطمئنان جناحيهما عليهما
وقالت مؤكدة:
-أنا معك، أشعر أنني ملكت الدنيا لكني أشعر بسحابة حزن تقترب مني
قال وقد أرقه قولها:
-لم يا حبيبتي
-لأننا سنفترق
قال برقة:
-إننا لا نفترق، فإن طيفك لا يغادرني، فأنتِ ماثلة أمام ناظري، إنك تملئين حياتي
قالت ساهمة:
-يا حياتي
ضغط على يدها الصغيرة بحنان وقال:
-إن أجمل ما في الحياة، امرأة جميلة صادقة في حبها
-الحب كلمة جميلة، عذبة، لم أعرف لذتها إلا عندما عرفتك
اقتربت السيارة من المكان الذي تنزل السيارة، بعيد عن بيتها فقال جابر:
-مع السلامة
نزلت بسرعة وسارت باتجاه بيتها، أما جابر فانطلقت به السيارة مسرعة وهو يغني بحياتك يا ولدي
امرأة عيناها سبحان المعبود

******

الغيرة سكنت في قلب نادية، فكل الشواهد تؤكد أن جابر يعمد إلى تجاهلها ولكن لماذا...!!
لابد أن ميرفت على علاقة أكيدة مع جابر، اتصل بها فلا ترد، اتصل بجابر فيرد بكلمات مجاملة، جافة، ويتهرب بكثرة مشاغله، رغم كلمات جابر الرقيقة معها إلا أن شكها كان ينمو شوكاً بخاصرتها حتى أدماها، ماذا أفعل حتى أتأكد من حبه،

وصدقه، لهذا قررت أن تذهب إلى مكتبة وتفاجئه بمجيئها... عندها تعرف مدى انشغاله ومن ثم مدى صدقه.
وآه لو رأت منه صدوداً، وألف آه لو أنها رأته يتجاهلها بسبب ميرفت الصديقة العدوة، وترجع وتقول :
-انا التي فعلت ذلك بيدي، وأنا التي عرفتها بجابر بيدي
-ما أغباني... ما أغباني
الشك، آه كم أخشاه كالشوك يُدمي، يحول حياة المرء إلى جحيم، والشك مثل الشوك يدمي النفس ويشعل فيها ناراً لا تخمد، حتى يحول كل شيء في حالة المرء إلى رماد.
اشتعلت براكين الشك في نفسها المعذبة، وصممت على الوقوف على حقيقة شعور جابر نحوها.
جابر الذي أحبته حباً جارفاً، وبادلته الحب، وعاشا أسعد اللحظات في حب يعبق بالهناء والأشواق.
-ما الذي غيره، لابد أن حباً جديداً سرقه مني ولكن من هي؟ من هي؟
تزينت، فكانت في قمة الأناقة، وسارت إلى مكتب جابر لتراه وتقف على حقيقة مشاعره نحوها.
جابر في المكتب وأمامه أوراق يراجعها باهتمام ولا يدري ما يجري حوله، حينما دخلت نادية وهي تقوم:
-احم احم
رفع رأسه، وهب واقفاً عندما رأى نادية، فأحس بشيء يهوي في داخله
-أهلاً أهلاً بأعز الحبايب
-أكيد؟
-وهل تشكين في ذلك
قالت بعتاب:
-إذن لماذا هذا الصمت ولا حس ولا خبر
-أعرف أنني ظلمتك، وظلمت نفسي، ولكن الأعمال، ملعون أبو الأعمال لقد سرقت منا زهو حياتنا سرقت أحلامنا الجميلة
أحست نادية أن جابراً صادق في حديثه وإنه لم ينسها، والدليل على ذلك فرحته حينما رآها... ومن كلامه الذي يفيض عسلاً ويضرب على أوتار قلبها الذي هدأت ثورته فقالت:
-سامحني لقد ظلمتك
قال جابر:
-اتعرفين أن اليوم الذي لا آراكِ فيه لا أعده من أيام عمري

قالت:
-متى آراك؟
-يا لك من رائعة، نذهب إلى المزرعة فلا أحد فيها إن أردت
-إني مشتاقة إليك، اشتياقاً كبيراً، في جعبتي كلام كثير أحب أن أقوله
-إذن اسبقيني ، وقفي في المكان المعهود لآتيك بعد ربع ساعة
-إلى اللقاء
ركب سيارته ، واتجه بسيارته باتجاه معاكس حتى يبعد الشك عن عيون جيرانه
كانت نادية تقف بانتظار جابر الذي توقف، وإندست داخل السيارة
قال جابر:
-ما أجمل اللقاء بعد غياب طويل
-لقد كنت أجن، وفعلاً صرت مجنونة، أحرقني الشوق وذوبني
قال جابر:
-صدقيني إنك لم تغيبي عن خيالي لحظة وأرى وجهك الجميل يشرق أيام ناظري
آه ما أروعكِ لقد انتشلتيني من براثين العمل
وصلا المزرعة، فتوجها من فورهما إلى البيت الريفي. خلعت إشارها وفردت شعرها على كتفها كشلال، فلما رأها قال:
-والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا
وتعانقا كان عناقاً طويلاً فضمها إلى صدره الملتهب، وتلامس شفاه أربع مجنونة. ثم انتقل إلى عنقها ووجهها، وعينيها. فقالت بدلال:
-لا تبسني في عيني بوسة العيون تفرق
وقضيا ليلة من أحلى ليالي العمر
في طريق العودة إلى البيت قال لها:
-إن صاحبتك تريد بناء بيتها
-إنني أعرف، فهي تغار مني
-لقد بدأنا بحفر الأساسات
قالت نادية لترى حقيقة مشاعره نحو صديقتها فقالت:
-وهل تراها؟!
قال بهدوء مصطنع:
-منذ أن جئت معها لم أرها وزوجها خيري فقط يأتي لوحده ليرى إلى أين وصل العمل.
قالت لترى نظرته إلى صديقتها بمكر:
-ما رأيك فيها؟!

-لا رأي عندي. مجرد امرأة عادية، وأنا لا يستهويني هذا النوع من النساء ومن ثم إن زوجها رجل متشدد.
قالت نادية:
-إنها صديقتي ،أعرفها منطوية على نفسها وغيورة
في تلك الأثناء كانت السيارة تشق طريقها إلى مقربة من بيتها. نزلت من السيارة وهي تقول:
-مع السلامة

******

عاد خيري زوج ميرفت من العقبة، ولما سأل زوجته عن أمر البناء، قالت له:
-لا أعرف، وها أنت جئت، إما أن تتصل به، أو تذهب إليه لتعرف ماذا وأين وصل البناء
قال خيري:
-فعلاً ليس الخبر كالعيان
كان جابر في مكتبه عندما دخل عليه خيري، فما أن رأه جابر حتى وقف مرحباً:
-أهلاً بك
-أين هذه الغيبة؟
-لقد كنت في مأمورية مع الشركة
-يا سيدي الحمد لله على السلامة
-هل بدأت العمل في الفيلا؟
قال جابر:
-بدأنا بحفر الأساسات. وإقامتها، أعددنا الحجارة، وكل ما يلزم البناء من اسمنت، وحديد، وطوب، وفي غدٍ إن شاء الله يبدأ العمل ولا يهمك فالأمور تسير وفق الخطة
-على بركة الله
قال جابر:
-ما رأيك لو ذهبنا إلى أرضك لترى بعينك ما تم إنجازه
-يسعدني ذلك
أخرج الرجل من جيبه مظروف وقال وهو يقدمه لجابر:
-تفضل هذه عشرة آلاف دينار حسب اتفاقنا
قال جابر:
-عال العال
ثم أخرج دفتر الوصولات وكتب فيه المبلغ والتاريخ وهو يقول:
-شكراً لك
قال خيري:

-هذه الآلاف العشرة كانت ربحي في البورصة
قال جابر مندهشاً:
-أتتعامل بالبورصة؟
-نعم وضعت بها ثلاثين ألفاً وفي خلال شهرين ربحت عشرة آلاف هذه التي أعطيتك إياها
-يا أخي يقولون لي إنها شركات نصب واحتيال
-لو كانت شركات نصب واحتيال، لما تركتها الحكومة تعمل. على كل حال سأخبرك بقصة حدثت مع صديق لي، عندما سمع أن زوجته وضعت في البورصة عشرين ألف دينار غضب غضباً شديداً مما فعلته زوجته، فطلب منها أن تُعيد المبلغ مهما كلف الأمر، فلما ذهبت إلى الشركة استقبلها المسؤول وقال لها كما تريدين، المهم تكوني راضية، ناولها العشرين ألفاً ثم قال لها انتظري إن إن لك في ذمتنا أرباح تعود لك وهي عشرة آلاف، وعد النقود وناولها إياها بأريحية، وعندما أخذت المبلغ وخرجت، اتصلت بزوجها، وأخبرته بما جرى، فرح فرحاً شديداً، وقال لزوجته أرى أن تعودي إلى شركة البورصة، وتضعي الثلاثين ألفاً حتى تزداد أرباحنا، ونحقق أحلامنا، وبالفعل عادت الزوجة ووضعت الثلاثين ألفاً في البورصة.
ثم قال جابر:
-أخشى أن يكون ذلك طعماً
قال خيري:
-لو لم أكن متأكداً من صدقهم لما تعاملت معهم
ابتسم جابر ابتسامة حائرة وقال:
-أمور لا تصدق، فعلاً إنها كالخيال، ،لكنها واقع ملموس ولهذا أقبل عليها المواطنون إقبالاً شديداً
-إن كانت عندك سيولة فبادر وأنت حر
اطرق جابر مفكراً فيما عرض خيري فلاحظ خيري شروده.
-يا رجل أنت شارك بمبلغ عشرين ألفاً إن كان معك ، وجرب، وثق إنك لن تندم وستدعو لي بالخير
قال جابر:
-قولك صائب سأشارك بدفع مبلغ خمسين ألفاً
-وثق بأنها ستكون بعد شهرين مائة ألف وسأذهب معك إلى الشركة التي أتعامل معها وفي أي وقت شئت
قال جابر:
-بعد غدٍ أجهز المبلغ ونذهب معاً
قال جابر:

-تفضل لنذهب لنرى ما تم إنجازه من البناء
-هيا
حينما رأى خيري مكان البناء عرف أن جابرا كان صادقاً فالآليات موجودة والأساسات واقفة، وآثار المياه ظاهرة على صبة الأساسات، فاطمأن وقال لجابر:
-ومتى نسكن في الفيلا؟
-بعد ستة أشهر فقط، طالما أن كل شيء جاهز، سيكون العمل مستمراً، المهم أن تكون راضياً
-بارك الله فيك

******

اغتنمت ميرفت خروج زوجها إلى عمله فاتصلت بجابر:
-صباح الحب
-صباحك سكر
-لقد أخبرني خيري عما تم إنجازه من البناء
-وما رأيه؟
-إنه معجب بك إعجاباً كثيراً، فقد قال لي إن الرجال الصادقون قليلون في هذه الأيام
وقال أنه حاول اقناعك للتعامل مع البورصة
-وما رأيك أنت؟
قالت:
-ربحنا عشرة آلاف في أقل من شهرين والناس يقبلون عليها بلهفة شديدة
-بل بطمع شديد للمال
-ما دام الناس يكسبون ويحققون أرباحاً كبيرة، فما المانع؟!
-نعم حسب رأيك، ما دام الناس يكسبون ، فلماذا يتأخرون ؟
توقف فترة ثم أردف قائلاً:
-وكيف أنتِ؟
-أذوب شوقاً لرؤيتك
-وأنا كذلك
لا تخف سأكون معك عندما يكون الوقت مناسباً
-إلى اللقاء
-إن شاء الله يكون قريبًا

******

البورصة كان حضورها كالسحر، لحست عقول الناس رجالاً ونساء، الأرباح الكبيرة، حتى الصحف ملأى بالإعلانات التي تثير العقول، وتسابق الناس في كثير من المدن الأردنية، للإيداع في البورصة.

في مساء الخميس كان مكتب جابر قد ضاق على من فيه عمال،مهندسون،مقاولون،مراجعون.

قال المهندس عبدالفتاح كأنه يطرح موضوعات للنقاش:

-الذي يحيرني إقبال الناس على البورصة

قال أبو رشدي النص:

-ببساطة الطمع،وكماقيل الطمع ضرّومانفع.

قال المهندس عبدالفتاح:

-لكن كل الذين أودعوا أموالاً فيها ربحوا أرباحاً كثيرة.

فقال أبو العبد الطوبار عند جابر:

-أمر محير، كلما قلت اشتري عدة أسهم شيء في داخلي يقول لي لا تفعل

قال جابر:

-لقد شاركت في شراء عدة أسهم وإذا تأكدت إن ذلك مجزياً اشتريت أكثر

قال فراس الدقاق معلم الطوبار:

-لقد بعت ذهب زوجتي بخمسة آلاف دينار، واشتريت بهما أسهماً

قال جابر:

-وهل ربحت شيئاً؟

قال فراس:

-نعم ربحنا في الشهرين الماضيين مائتي دينار

قال جابر:

-أرأيتم، إن الحالة صحيحة مائة بالمائة

قال أبو رشدي النص:

-إذا ظلت البورصة تعطي الأرباح وتعطي فإن الناس سوف يعتمدونعليهافي حياتهم فيحكم عليهم الكسل.

وتابع أبو رشدي ،قد بدت على وجهه شيماء القلق:

-ليس المهم الربح أو الخسارة المادية ولكن يجب أن نعرف هل هذا حلال أم حرام؟!

قال أبو فراس الدقاق:

-إن مسؤول البورصة الذي اشتريت منه شيخ ولحية تصل صدره.

قال أبو رشدي:

-يا ناس هذا قمار

واحتد الجدال بين الجالسين حتى وقف أبو رشدي قائلاً وقد قام من مجلسه لمغادرة المكان:
-يا ناس البورصة حرام والسلام عليكم
قال فراس الدقاق:
-ناس تحرمه على الإطلاق، وناس تحلله، وناس تقول فيه شبهة والله أعلم
بقيام أبو رشدي، انفرط العقد فأخذ المجتمعون يغادرون المجلس
كثيرون أمام المال يفقدون الرشد، أكان حلالاً، أو حراماً يهمهم الكسب السريع وهكذا.
ولهذا كان تهافت الكثيرون على شراء أسهم البورصات، وأودعوا أموالهم طمعاً وشرها، يحلمون الحياة البذخ والرخاء والكسل.
أُلقي حجر في مياه البورصة الساكنة وبدأت الشكاوي من عدد كبير من مدينة اربد تقول إن عمليات النصب والاحتيال قام بها أحد أصحاب البورصات ، وأخذ الأموال وفر إلى خارج البلآد.
لهذاأخذأصحاب البورصات في عمان يدافعون عن أنفسهم،وأن ماحدث في اربد ليس دليلاعلى أن كل البورصات مصائد للناس،وبدأت تظهر في الصحف استنكارات أصحاب البورصات لتُطمئن عملاءها.
قال فراس الدقاق:
-النصب والاحتيال يقع في كل مجال، والبورصة إذا دخلها بعض المحتالين، فليس كل شركات البورصة محتالة.
قال جابر:
-فعلاً لقد ذهبت إلى المدير المسؤول عن البورصة التي اشتريت منها اسهمي رحب بي، ولما سألته عما حدث في اربد قال لي مطمئناً أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا. وناولنى شيكاً بأرباح أسهمي أكثر من عشرة آلاف دينار.
-إذن تأكدت أن ما حدث في اربد هو احتيال، ولكن البورصة في عمان يقوم عليها أناس شرفاء وجادون.
-بالطبع ولهذا وضعت العشرة آلاف ثمناً لشراء اسهم تضاف إلى رصيدي.
******
بدأ العمل على قدم وساق في فيلا خيري زوج ميرفت وخلال ثلاثة أشهر كان البناء قائمًا، لذا بدأ عمال الكهرباء والتمديدات الصحية يؤسسون لخطوط المياه والكهرباء وبدأ النجارون يُركبون براويز الأبواب ليبدأ عمال القصارة بالعمل.
عرف خيري أن العمال ينتهون من عملهم الساعة الخامسة مساء فلهذا كان في الساعة السادسة يصطحب زوجته ميرفت إلى بيتهم، ليروا ما تم عمله.

لم يكن في الموقع سوى الحارس الذي كان يجلس خلف جدار من الطوب يشرب الشاي، فما كاد يراهما حتى هب واقفاً.

-أهلاً وسهلاً

قال خيري أسعد:

-أهلاً بك

-كيف العمل يسير؟

-على أكمل وجه

-هل جاء السيد جابر اليوم إلى هنا؟

قال الحارس:

-المعلم جابر على الرغم من أن يعملون معه معلمون ماهرون، إلا أنه لا يغادر المكان حتى يطمئن إلى جدية العمل.

-ومتى غادروا؟!

-قبل حوالي ساعة

ثم ذهب إلى الجدار حيث إبريق الشاي في صينية مع كأسين

قآل خيري:

-لا تتعب نفسك

ثم تركا الحارس يشرب الشاي ويدخن ودخلا الفيلا وقالت ميرفت:

-متى نسكن الفيلا ونرتاح؟!

-اطمئني العمل يسير وفق الخطة الموضوعة ولا نريد الاستعجال حتى تكون الأمور كما تجب.

خرجا من داخل الفيلا، وطافوا حولها قالت ميرفت:

-أرأيت إلى المساحات المتروكة حول الفيلا، سأجعل منها جنة، أشجار من كل الأنواع، زهور جميلة في كل مكان وخصوصاً المدخل

-الله كريم

قال لها:

-إن السيد جابر رجل طيب، وقد أثلج صدري بتعاونه معنا

قالت تؤكد قوله:

-الحمد لله الذي ساق لنا ابن حلال، صادق في العمل، مخلص وجاد

-أتعرفين أنه رهن مزرعته للبنك مقابل مائة ألف، اشترى بها أسهماً في البورصة؟

-يا إلهي هذه مغامرة

-لا مغامرة ولا شيء، إنه ذكي ويستاهل كل خير

-ولكن ما فعله مغامرة كبيرة

-ولكنها مغامرة إن ابتسم له الحظ سيكون مليونيراً

فقالت:
-ولكن إذا خسر لا قدر الله تكون كارثة وسقوطاً مريعاً
-يا إلهي إنه مجنون
-نهمان لا يرتويان طالب العمل وطالب المال
ثم قالت له:
-وهل ستشتري أسهماً بالبورصة
-أفكر.... أولاً نريد أن ندفع باقي تكاليف الفيلا وبعدها نرى ما يبقى معنا وعلى ضوء ذلك أقرر كم اشتري من أسهم
-ولا تنسى تأثيث الفيلا، فإن فيلا جديدة تحتاج إلى أثاث جديد، فاخر يليق بفيلا ثمينة وجميلة.
-لهذا لن أتصرف بما معي من نقود حتى نؤثث البيت تأثيثاً فاخراً
-يا إلهي كم أنا متلهفة للسكن في الفيلا
قال مطمئنها:
-لم يبق من الكثير إلا القليل
-الشكر لله

******

في الصباح وبينما كان جابر في موقع العمل في فيلا خيري كان يرافقه المهندس عبدالفتاح:
ولما رأيا معلم البناء قال جابر له:
-هل المواد الموجودة كافية؟
-كل شيء على ما يرام ، لا تحتاج إلا إلى سيارتين ناعمة وخمسمائة طوبة وطن اسمنت.
قال جابر موجهاً الكلام للمهندس عبدالفتاح:
-غدًا تكون طلبية البناء جاهزة، لا نريد أن يتوقف العمل حتى يبيض وجوهنا مع السيد خيري.
-في الصباح يكون كل شيء جاهز كما تريد
في تلك اللحظة خرجت من نقال جابر موسيقى، نظر إلى شاشة النقال فوجد أن نادية تطلبه.
استأذن المهندس عبدالفتاح وسار بمهل وهو يقول:
-أهلاً أهلاً
-صباح الحب الجميل
-صباحك عسل
-أريد أن أراك، فأنا متلهفة لرؤيتك أم أنك مشغول!!

-إن اللحظات التي أقضيها معك من أجمل لحظات حياتي فيها أنسى تعبي ومشاكل العمل والعمال، وأنا معكِ تذوب همومي ويتلاشى تعبي
-لقد صرت شاعراً
-آتعرفين أنك أجمل قصيدة في حياتي
-اسمع احفظ هذا الكلآم السكر عندما نلتقي
-حسناً الساعة السادسة إن كان يناسبك
-اذن في المكان المعهود
-سأكون بانتظارك على أحر من الجمر
-إلى الملتقى
-مع السلامة

******

كان بيت عزاء المرحوم الحاج لافي الحمد الله يضيق بمن جاؤوا لعزاء أبنائه وإخوانه وعائلته.
أناس يدخلون يسلمون على أبناء وإخوان المتوفي، وآخرون يخرجون.
وفي تلك الاثناء ، دخل شاب ومعه حقيبة سوداء، وقام بتعزية أبناء المتوفي وإخوانه، ثم دخل وجلس مع المعزيين.
بعد أن شرب القهوة السادة، وقف وقال بصوت مسموع:
-أين أبناء المرحوم لافي الحمد الله، أريد أن اتحدث إليهم.
تقدم ابن المتوفي الأكبر إبراهيم، وقف أمام الشاب وقال:
-ما الأمر؟!
قال الشاب بصوت عال:
-لقد وضع المرحوم لافي الحمد الله في شركة البورصة التي أُديرها مبلغ وقدره عشرة الآلاف دينار، وقد كان مجموع أرباحهما خمسة آلاف دينار.
واشهدوا أني سلمتها إلى ابنه الأكبر، وناول ابن المرحوم خمسة عشرة آلف.
أخرج الشاب مجموعة أوراق من الحقيبة وقال له أن يوقع على الأوراق تفيد أنه استلم المبلغ.
ما فعله الشاب كالسحر في نفوس الحاضرين العشرة آلاف تربح خمسة الآف.... ولا الحلم .... لهذا اندفع الناس إلى شركة البورصة.
ليودعوا أكبر مبلغ يستطيعون تجهيزه، باعت النساء حليهن، وباع كثير من أصحاب الأراضي أراضيهم ليحولوا أثمانها إلى أسهم في البورصة.
وانتشر الخبر في أنحاء الوطن ، ويقال والعهدة على الراوي إن صاحب بورصة اربد جمع في خلال شهر واحد أكثر من ستة ملايين دينار، ولم يمض وقت طويل، حتى يعطي للمساهمين، فتفائل المشتركون وهللوا.

بل إن كثير من ترك أرباحه ليحولها أسهماً في البورصة طمعاً في الربح الوفير.
عاش المساهمون أياماً من عسل ، ولكن أحلامهم ذهبت وأدراج الرياح، يذهبون ليسألوا عن أرباحهم ، فوجدوا مقر الشركة مغلقاً، سألوا عن سبب الإغلاق ، فتشوا عن الشاب صاحب شركة البورصة، فلم يجدوا له أثراً.
لهذا هرع الذين أودعوا أموالهم عنده إلى مراكز الأمن الذين سارعوا إلى إجراء اتصالات سريعة إلى مراكز الحدود.
فكر صاحب بورصة اربد في طريقه للهرب، قدم مبلغاً من المال إلى أحد تجار الأغنام يضعونه بين الأغنام ليقطع الحدود إلى سوريا وهناك، كان رجال الأمن يفتشون عن كل شيء قريب واستطاعوا إلقاء القبض عليه متخفياً بين الأغنام ثم زجوه في السجن.
ثم قامت الأجهزة الأمنية في عمان والزرقاء بإلقاء القبض على كل أصحاب شركات البورصات.
قال أحد رجال الأمن:
-كل من يلقى القبض عليه، نخيره إما السجن أو رد الأموال إلى مودعيها، أو السجن ، كل شكوى مدة الحبس بها ثلاث سنوات.
ومن كان يرد الأموال إلى أصحابها يُفرج عنه.
-وهل يمكن إعادة ما سرقوه إلى أصحابه؟؟؟؟
-عندما يجد الواحد منهم أنه سيقضي عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة في السجن لابد أن يرضخوا للأمر الواقع لكن هذا تأخير وقت.
سقطت ورقة التوت، وظهرت عورات كثيرين من أصحاب البورصات وتبين أن أكثرهم محتالون يعرفون كيف يوقعون الناس في الشرك، وتبين لجابر أنه وقع فريسة لهؤلاء الذئاب الشرسة، وصار في صراع عنيد مع نفسه.
ليتني لم أرهن المزرعة، ليتني سمعت قول زوجتي عندما رجتني وتتوسل "لا ترهن المزرعة" يكفي ما أودعت، لقد كانت زوجتي حكيمة عندما رفضت بيع مصاغها، وكنت أحمق عندما خاصمتها لأنها رفضت بيع مصاغها قائلة:
-أنت حر فيما تملك وأنا لست مستعدة أن أغامر بمصاغي ، إن قلبي غير مستريح من البورصات.
عصفت الخلافات بينهما لأنها لم تطاوعه وصارت علاقتهما جافة.
-يا امرأة مصاغك يصبح أكثر!!
قالت بتؤوده ورفق:
-يا زوجي الحبيب عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة
-والله أريد صالحك
-أنا راضية بما معي، أرجوك لا تحدثني في هذا الأمر أبدًا

-يلعن البورصة ويومها
قال مرغماً:
-على خاطرك
وخرج من البيت غاضباً أسِفاً من زوجته ذات التفكير الضيق.
وقال يحدث نفسه:
-غبية غبية
قال بمرارة ويأس :
-ليتني سمعت كلامها، المزرعة سيحجز عليها البنك، والبيت سأحاول فك رهنه مهما كلف الثمن، والمعدات ستباع في المزاد القلابات والسيارات وسيارات الباطون وصهاريج الماء والحفارات وكل شى، ومعنى ذلك أنها ستباع بثمن بخس.
أحس بالندم، وانتابته موجة حزن، ولفه اليأس بردائه القاتم، وانهالت دموعه، ولما حاول أن يقف لم يستطع الحركة فبقي في المقعد كومة من يأس وضعف.
عيناه تحملقان في اللاشيء، وعندما رآه أخوه صدقي الذي سرعان ما اتصل بالدكتور، فاخبره عن حالة أخيه جابر.
قال باهتمام:
-سأكون عنده في الحال
كلمه الطبيب فلم يجد رداً، شفتاه كانتا تهتزان، وعيناه تنظران إلى اللاشيء
كشف الطبيب عن صدره، فحص دقات القلب والرئتين ثم قال لأخيه:
-يجب أخذه إلى المستشفى
بعد الفحص والتحاليل في المستشفى. قال الطبيب:
-جلطة في الرأس سببت الشلل.
دخل جابر في مركز العناية الحثيثة مدة أسبوع.
خرج جابر من المستشفى، وعادت إليه صحته باستثناء ضعف كان في قدمه اليسرى، وطمأنه الطبيب وقال:
-الحمد لله، كثيرون يُصيبهم الشلل، ولا يستطيعون حراكا.... أما أنت فكانت خفيفة، وأنا متأكد انه مع الدواء وبعض المساجات والأشعة ستكون على ما يرام.
لم يُجب جابر بأي كلمة، فالحزن يسكن قلبه، وشعوره في اليأس تملكه.
قال الطبيب ناصحاً:
-عليك يا أخ جابر بالصبر، وأن تحاول أن تخرج وتتحرك وليكن إيمانك بالله كبير.
هز جابر رأسه موافقاً.
بقي جابر في البيت، كانت زوجته حريصة، تخفف عنه، تقدم له الدواء، وتعمل المساج لساقه اليسرى وتشجعه على المشي. قالت له بفرح ذات يوم:
-الحمد لله ها أنت تتحسن يوماً بعد يوم

كان ينظر إليها بعينين شاكرتيين، فتربت على كتفه فيأسره حنانها ورقتها.
عندما سمع آبو نجيب وشركاؤه ما آل إليه جابر متشفياً:
-اصبر على ابن الحرام يقع لوحده
قال شريكه الدرعي:
-لقد كان سقوطه مريعاً
قال آبو نجيب:
-الله لا يرده، عقدنا ابن الحرام
-لقد أصبح لا يملك شروى نقير، كل ما يمتلكه راح وأدراج الرياح
قال الدرعي:
-والله إنني حزين عليه، ارحموا عزيز قوم ذل
رد أبو نجيب:
-لقد خلصنا الله من منافس كبير، هذا حال من يقف في طريق أبي نجيب
******
لا يزال جابر في بيته واجماً، شارداً، يرنو بعينين حزينتين، ووجهه شاحب.
لقد عاد مثل فأرة الحقل، ولا يدري أحد كيف يدبر شؤونه.
كانت نادية في البيت تجلس مع طفلها حسان ابن الرابعة، وتقص عليه حكاية العصفور والكلب.
قالت نادية:
-كان ياما كان في قديم الزمان عصفور طيب، حفر حفرة تحت رجلاه، نظر إلى السماء تكحلت عيناه، راح إلى اللحام أعطاه قطعة لحم، وراح للفران شواها له، وأعطاه رغيفاً
قال حسان متسائلاً:
-العصفور لا يأكل اللحم؟!
قالت نادية معجبة بذكاء طفلها:
-صحيح، لكن الحكاية هكذا تقول
-طيب أكملي الحكاية
رآه كلب فأراد أن يعمل مثله، حفر حفرة، تكسرت رجلاه نظر إلى السماء، عميت عيناه، راح إلى اللحام قطع أذنيه راح للفران قذفه في النار.
قال حسان:
-هذا نصيبه
في تلك الأثناء أخرج نقالها موسيقى
صاح حسان:
-بابا بابا

قالت نادية:
-سأرى من يطلبنا في هذا الصباح
كانت ميرفت، فقالت نادية:
-صباح الخير
-صبآح النور
-خير إن شاء الله
-الجمعة القادمة حفل زفاف شقيق زوجي، وأنتِ والدكتور مدعوان لحضور الحفل الساعة التاسعة مساء وحتى الحادية عشرة ليلاً، وعلى فكرة سيصلكم كارت الدعوة غداً
قالت نادية:
-أخشى أن لا نستطيع المجيء لأن زوجي يكون مرهقاً
-يجب أن تأتوا
-على كل حال سأحاول إقناع زوجي. على فكرة ما رأيك يوم الجمعة صباحاً نتقابل في صالون الأناقة، الصالون الذي التقينا فيه آخر مرة. صالون السيدة صباح
-سأخبرك فيما بعد
-يجب أن تأتي فقد حجزت لي ولك عند صاحبة الصالون السيدة صباح
-أمري لله، سأكون في الصالون
ثم توقفت وقالت مستفهمة في أي ساعة
-في العاشرة صباحًا
صالون الأناقة واسع، ثماني مقاعد من الجلد الأسود، ومقعدان لجلوس السيدات التي جاء دورها للتزيين ، وعلى مقربة منهما الأدوات والمواد التي تستعملها صاحبة الصالون ومساعدتها.
خمس نساء يجلسن على المقاعد الجلدية.
السيدة ميرفت التي كانت تنظر لساعة يدها بادياً عليها القلق، لتأخر صديقتها نادية، وامرأتان تتحادثان معاً، وإلى قربهما تجلس فتاة هي أختهما وهي عروس الليلة دخلتها، وسيدة سمراء تجلس بوقار، يبدو أنها موظفة مترفة، وجارتها خادمتها السيريلانكية تحمل طفلاً، قالت السيدة تخاطب الخادمة:
-احملي الطفل جيداً
انتبهت الخادمة كأنها أفاقت من شرودها وأجلست الطفل برفق وحنان في حضنها
أخرجت ميرفت نقالها واتصلت بنادية:
-صباح الخير
-لماذا تأخرتِ؟ أنا بانتظارك! لا تتأخري
قالت ميرفت تخاطب السيدة السمراء:

-أنتِ عندك خادمة سيرلانكيه، هل أنتِ مرتاحة معها؟
-طبعاً وإلا ما جئت بها
-وهل زوجك موافق على ذلك؟
-طبعاً، فهو الذي جاء بها، وعلى فكرة على الرغم من إيجابيات العاملة في المنزل العديدة، إلا أنه في أحيان كثيرة قد تشكل خطراً على المنزل وخصوصاً على الأطفال من حيث تعلقهم بها.
قالت ميرفت باستغراب:
-وكيف ذلك؟
-قد يؤثر على علاقتهم مع أبويهم، بالإضافة إلى أنه أحياناً لا يستطيع الأبوان تلبية بعض رغبات أبنائهم، أما العاملة فهي مضطرة للاستجابة لهم بجميع الأشكال، وبطبيعة الطفل وبذكائه يتجه نحوها لاستجابتها له.
قالت صاحبة الصالون السيدة صباح التي كانت تستمع إلى السيدة باهتمام:
-يا مدام شهناز هل الخادمة ضرورية، حتى و لم تكن لدى بعضنا قدرة على إعالة الأسرة أصلاً، فكيف بالوافدة الإضافية؟ أم هي المباهاة للقول أن في بيتنا خادمة؟
قالت السيدة شهناز:
-هكذا يكون الأمر غير صحي غير مقبول
قالت السيدة المرافقة للعروس:
-قبل سنة عملت عندي خادمة عربية، وأعطيها أجرتها يومياً، ولما أحضرت خادمة أجنبية استرحت معها، فهي أفضل لأنها تعمل دون كلل ولا ملل ولا تطلب إجازة وراضية بما تقوم به.
قالت ميرفت:
-أليست الخادمة المحلية أفضل؟!
قالت السيدة صباح:
-لقد أحضرت خادمة محلية فقد عانيت معها مشاكل لا تعد ولا تحصى، فلم يبق سر من أسرار المنزل إلا وأسمعه من الجيران، وكانت تختلق الأكاذيب تارة لتذهب إلى أهلها، وتارة أنها مريضة، وأحياناً تزعم أن شقيقها تعرض لحادث، لهذا وجدت في الخادمة الأجنبية ما يُريحني، رغم أن لغتها مختلفة تماماً عن لغتنا وعاداتها مختلفة عن عاداتنا إلا انني أستطيع أن أجعلها تتعاون معي.
في تلك الأثناء دخلت نادية والبسمة تضيء وجهها واتجهت صوب ميرفت وهي تعتذر:
-آسفة، إن تأخري ليس بيدي، فقد أرسلت ولدس حسان إلى عيادة أبيه، حيث يقوم بتركيب جهاز جديد للعيادة
قالت ميرفت:

-جئتِ بالوقت المناسب
-خير
-نحن في نقاش حول الخادمات الأجنبيات اللواتي غزين بيوتنا
قالت السيدة صباح:
-شقيقتي دلال على الرغم من أنها ليست موظفة، لكن لديها ثلاثة أطفال، والخادمة تعينها في تربيتهم وتسهم في إنجاز أعمال المنزل، لكنها إضافة لعنايتها بالأطفال، فقد أخبرتني شقيقتي دلال أنها في كثير من الأحيان تشعر بالملل وتشعر بفراغ قاتل، فوجود الخادمة علمها الكسل والاتكال، وعدم الاهتمام بشؤون المنزل، لأن الخادمة هي المسؤولة عن كل شيء.
قالت نادية متدخلة:
-عمل المرأة في البيت هو الذي يمدها بالسعادة
قالت السيدة صباح:
-تقول شقيقتي، إن أولادها تعلقوا بالخادمة أكثر من تعلقهم بأمهم، لأنها هي من تعتني بهم، خصوصاً ابنة شقيقتي الصغيرة، لأنها تلازمها باستمرار وتنام معها في غرفتها.
كانت عاملة الصالون التي تساعد السيدة صباح تستمع لما يجري في حوار فقالت:
-إن زوجي يرفض وجود امرأة أخرى في بيته وتربي أطفاله، لكن ظروف الحياة، وطبيعة عمل زوجي، وطبيعة عملي في الصالون، جعله يضطر إلى إحضار خادمة أجنبية في بيتنا و لكنه يحرص على نظافتها حيث يعمد إلى اخضاعها إلى فحوصات طبية من آونة وأخرى للاطمئنان عليها وعلى الأسرة.
قالت السيدة صباح:
-إنني أرفض أن أحضر خادمة إلى بيتي، كيف أدخل امرأة تختلف عاداتها وتقاليدها عن عاداتنا وتقاليدنا، وبعيدة عن لغتنا فهي غريبة عني.
ثم سكتت برهة وتابعت الحديث:
-فوالدتي رحمة الله عليها، كان لديها خمسة أطفال، وتعمل في المزرعة، ورغم ذلك لم تحضر أية امرأة لتقوم بتربية أطفالها. فكيف الآن وأنا امرأة ليس لدي سوى طفلين وأعمل لمنتصف النهار فقط، ولا أقوى على تربيتهما، فلو أحضرت خادمة أجنبية اجعل لأطفالي شخصية مزدوجة.
قالت السيدة سندس وهي تحمل شهادة الماجستير في علم الاجتماع:
-لقد كانت رسالتي في الماجستير بعنوان الخادمات الأجنبيات ما لهن وما عليهن
قالت السيدة صباح:
-أيتها السيدات عند الأستاذة سندس القول الفصل انصتن
ثم أشارت على السيدة سندس وقالت :

-تفضلي، اشفي صدورنا
ابتسمت الأستاذة سندس ابتسامة رقيقة واعتدلت في مجلسها وقالت بهدوء :
-إن ظاهرة العاملات الأجنبيات، أصبحت منتشرة في منازلنا، ودون شعور بخطرهن على أنفسنا وعلى أطفالنا، وعلى بيوتنا، فالتقاليد مختلفة والعادات غريبة، وكذلك نجد أن لغة التخاطب مع الخادمات تؤدي إلى تعلم الأطفال لغة لا يستعملونها في حياتهم حيث يكبرون، أو حتى في تعاملهم، من هنا تبدو المسألة صعبة وتحتاج إلى وعي من قبل الأهل وتنظيم في العلاقة، بحيث لا تكون دائماً مع الصغار.
وأن لا تكون العاملة في المنزل إلا في حالة الاحتياج التام والضرورة القصوى.
قالت السيدة صباح:
-يسلم فمك
ساد هرج ومرج بين الجالسات ثم قالت السيدة صباح:
-مدام ميرفت تفضلي دورك
قالت ميرفت:
-مستحيل، تفضلي يا أخت نادية

******

وضعت الحكومة يدها على أموال أصحاب البورصات، وكانت جادة في إرجاع ما يمكن إرجاعه، عن طريق إرجاع الاموال أو وضع ترتيبات حكيمة اتخذتها الحكومة لرد أموال المشتركين، ولهذا كانت تعيد إلى المشتركين بعضاً من اشتراكاتهم تبعا لحجم المبالغ التي دفعوها.
كان جابر كفلاح ينتظر نزول المطر، وفعلاً أعادوا له مبلغ عشرة آلاف دينار، ريثما يتم في وقت لاحق إرجاع بقية ما دفعه على دفعات، فرح جابر ما استعاده من أمواله، ولكن ذلك لم يمنع من بقاء طيور الفاجعة في سماء حياته، فكانت كالريح العقيم، المبالغ الطائلة التي دفعها كبيرة، مزرعته ضاعت وما كان يمتلكه من سيارات وآليات قد ذهبت وأدراج الرياح.
حالة من اليأس والندم لفت حياته، وحاصره يأس وندم شائك لما آل إليه.
لم يغادر المنزل، وأصحابه تفرقوا عنه.
اكثر ما كان يؤلمه ويسبب له الصراع والأرق معاً، أولئك الذين منحهم الحب والرعاية حتى نادية حبيبة القلب لم تسأل عنه، حتى زوجها الدكتور طلال رغم ما قدمه إليه لم يسأل عنه!
-يالقساوة قلوب الناس، حتى ميرفت لم تسأل ولم تكترث به
لهذا انطوى جابر على نفسه، وصار رهين البيت جابر لا يزال يعيش في صمته، كانت خسارته كبيرة، خسر أمواله، خسر مركزه الاجتماعي، خسر ثقته بالناس.
والأشد والأنكى من ذلك كله، أنه خسر نفسه فأصبح يقلب كفيه أسىً وندماً.

شيء واحد يبعث في نفسه الرضى، هو زوجته التي كانت تعمل إلى إرجاع السعادة إلى قلبه المتصدع، وطفله الوحيد رغم صغر سنه، إلا أنه كان يحرص على مجالسته وكأن الصغير كان يحس بما آل إليه والده فيقول له بعفوية وصدق:

-بابا لماذا أنت زعلان؟ مني أنت زعلان؟

فيجيبه بنبرة أسى مشوبة بالعطف:

-أنت حبيبي، كيف أزعل منك

فيضمه إلى صدره ويُقبله بحنو زائد.

وهكذا عصفت الريح العقيم على حياة جابر الوحيد الحزين في بيته لا يغادره ولا يحب رؤية أحد.